قصص

رقصة فالس أخيرة

رشا نعمان

النسيم

الأعمال الكاملة
t.me/katahm

رقصة فالس أخيرة
قصص
رشا نعمان

الطبعة الأولى: 2014
رقم الإيداع: 2014/23325
ISBN: 978-977-6452-67-1

دار النسيم للنشر والتوزيع
ت: 01006229487
e mail: daralnassim@yahoo.com
دار النسيم للنشر والتوزيع

المدير العام: **أشرف عويس**
إشراف فنى: **هند سمير**

رقصة فالس أخيرة

قصص

رشا نعمان

إهداء

- إلى من جعل من الأحلام المؤجلة حقيقة ألمسها.. من تعلمت على يديه بوح القلم.. وعلى وقع صوته تعلمت النطق وصياغة العبارات ونسج الحكايات، إلى من علمني الحياة.. أبي.
- إلى روح أمي.. في ذكراكِ دفء ما يزال يرعاني.
- إلى صديقٍ أَبَى أن يُغادر مرفئي.
- إلى رفاق هم طاقة النور في عتمة الطريق.
- إلى أولئك المتشبثين بأحلامهم.. القابضين عليها كخيط رفيع.. لا تفلتوه وآمنوا أن الغد آتٍ بقوس قزح.

رشا

"على قدر ما يغوص الحزن في أعماقكم يزيد ما تستوعبون من فرح، أليست الكأس التي تحمل خمركم هي هي الكأس التي احترقت في أتون الفخاري؟ وأليست القيثارة التي تسكن إليها نفوسكم هي هي قطعة الخشب التي حفرتها السكين"

جبران خليل جبران

عازفة الكمان

لست عازفة محترفة ولكن هذه الآلة وممارسة العزف عليها وسيلتي للحياة، رئتاي اللتان أتنفس بهما. في منزل واسع كبير بطراز قديم بُنِيَ في ثلاثينيات القرن الماضي، أعيش فيه أنا وجدي المريض حياة رتيبة، الأيام تشبه بعضها ولا تحمل أي جديد، بعد أن انفصل والداي انتقلت للعيش في بيت جدي وكان عمري وقتها عشر سنوات، احتضنتني جدتي الحنونة ولكنها توفيت بعد ذلك بعامين وظللنا أنا وجدي يتكئ كل منا على الآخر، أما والداي فالآن كل منهما بنى بيتًا وحياة أخرى وأنجبا أبناءً آخرين ونسياني تمامًا، حتى إن الجميع يظنون أنني ابنة جدي، لا أحد يذكر مَن أبي وأمي، في الماضي كان بيت جدي صاخبًا عامرًا بأشخاص كثيرين يأتون لزيارته؛ فهو مركز العائلة ومركز المنطقة الصغيرة التي يعرف أهلها بعضهم البعض ويحتفظون ببعض التقاليد القديمة.

كان جدي يدللني كثيرًا ويأخذني للنزهات ويشتري لي الورود والحلوى في المناسبات، كان يناديني بأميرتي الصغيرة ولأن اسمي بسمة فكان أحيانًا يناديني "بسمتي"، منذ صغري وهو يعلمني العزف على آلة الكمان التي كانت هي والبيانو جزءًا من أثاث المنزل، كان يحكي لي عن شبابه وحبه للموسيقى ورفاق الموسيقى وكتابة الشعر، منذ عامين بدأت صحة جدي في التدهور تدريجيًا حتى إنه الآن بالكاد يذكرني، صرت أشعر بالوحدة والحزن والكآبة والوحشة بين جدران هذا المنزل العتيق.

طريقي للهروب من كل هذا هو العزف، وهاتفي الذي هو نافذتي على الأحباء الذين لا أستطيع زيارتهم ومن تبعدني عنهم المسافات الطويلة.

جدي يعشق التاريخ فقد كان مدرسًا لمادة التاريخ في شبابه، فتجده

قد نسي أسماء الأشخاص ونسيني ونسي أبناءه ولكنه رغم ذلك يذكر الأحداث التاريخية بتفاصيلها الدقيقة ووقت حدوثها بالشهر واليوم وليس السنة فقط، ويظل يسردها على مسامعنا باستمتاع مدهش، عمتي زينب تأتي أحيانًا لتدبير شئون المنزل ومعها سيدة بسيطة تساعدها في أعمال التنظيف في هذا البيت الكبير، وأنا أنتظر هذا الوقت الذي تأتي فيه عمتي بفارغ الصبر فهي تضفي من روحها على المنزل الكئيب فيضيء ببهجتها ودفء حنانها.

أتدري شعور امرأة ثلاثينية مثلي لم يطرق بابها رجل؟ شعور امرأة وحيدة في بيت ضخم تمر فيه الرياح فتحدث صفيرًا مرعبًا كل مساء، وفي الصباح لا تستطيع أن تنعم بضوء النهار النافذ عبر زجاج الشرفات.. حتى لا تجرحها أعين الجيران ونظراتهم الخبيثة والمؤلمة.

أنا امرأة تعاني الوحدة وحولها الكثيرون.. وتعاني اليتم وأبواها على قيد الحياة..!!

تحت وطأة الوحدة والحزن قبلت ذلك الطارق الذي أتت به عمتي. قالت إن العمر يتسرب من بين يدي وأنا لا أنخرط في المجتمع بالشكل الذي يسمح بأن يعرفني الكثيرون حتى يمكنني أن أختار ويكون لي حق القبول والرفض، لذا فليس لي طريق آخر سوى هذه الطريقة التقليدية، فوافقت على رؤيته على مضض، وتأملت أن يكون هو الواقع الذي يجسد أحلامي في شريك الحياة، عيناه تحمل الحكايات والحنان والعمق، ليس ضروريًا أن يكون وسيمًا، ليته يكون رقيقًا نبيلا، أعزف ويشاركني ألحاني واهتماماتي، أحلامي وجنوني وبعض عقلي.

في عصر اليوم التالي تزينت في انتظاره ثم حمّلتني عمتي القهوة ودخلت لأرحب به، كان يجلس مع زوج عمتي وجدي الذي جلس بنصف ذاكرة ونصف وعي، كان رجلا وسيمًا لا بأس به.. وطويلا وأنيقًا، قد يبدو هذا

جيدًا ومريحًا، لكن شيئًا ما فيه لم يكن مريحًا لي، ربما عيناه فقد كانتا باهتتان كعيون الموتى وتحمل خبث العالم، تغاضيت عن إحساسي وبدأنا الحديث فأخبرته عن أحلامي.. عن حبي للموسيقى.. للقراءة.. للطيور والورود، كان يبتسم في صمت واعتبرت ابتسامته ترحيبًا بكل أحلامي البسيطة، كنت واضحة ككتاب مفتوح بينما بدا هو غامضًا.

قالت عمتي بعد انصرافه شاب مكافح وإمكاناته ممتازة، "حاتم" فرصة لن تعوض.

لم أشعر بأي شيء ولكنني وافقت، تمت خطبتي سريعًا وبعدها كلما حدثته عن هواياتي نعتني بالساذجة، فماذا لو حدثته عن الموسيقى وعن الليالي التي أقضيها في عزف النوتات وأتحدى نفسي في واحدة تلو الأخرى حتى أتقنها إتقانًا تامًا.. بالتأكيد سيضيف لسذاجتي الجنون.

من أتى بهذا المخلوق إلى أرضي وعالمي الصغير؟ لقد دنس مقدساتي واقتحم حديقتي ودهس أزهاري، لو كان جدي بكامل وعيه، لكشف ما بداخله فور النظر إلى عينيه ولألقاه يومها خارج المنزل ولقنه درسًا عظيمًا لجرأته في طلب يد أميرته الصغيرة وهو محمل بكل هذا القدر من التفاهة والسخف.

في يوم ما حلمت بـى "آدم".. ابن عمي ورفيق طفولتي، وعندما استيقظت تذكرته وبكيت بشدة، آدم كان حب الصبا، كنت أحبه وأبني أحلامي الصغيرة بيني وبين دفاتري التي تحفظ أسراري وأمنياتي بين أوراقها، منذ غادرنا وسافر لألمانيا انقطعت عنا أخباره بعد أن شب خلاف بين جدي وعمي ومنعه جدي من دخول المنزل وغضب عمي ولم يرق قلبه قط.

وغاب حبيبي وفارسي للأبد فقد كان محرمًا علينا أن نذكر أي اسم من أفراد عائلة عمي داخل هذا المنزل، فأقبرته داخل قلبي في منطقة عميقة بداخلي وأهلت التراب فوق ذلك الوجع الذي يصيبني كلما تذكرته، أحاول

أن أمحي صورته من ذاكرتي تجنبًا لهذا الألم، ولكن ذاكرتي أبت وأبيت أنا، فقد كانت هذه الذكريات القليلة هي أجمل ما في العمر.

فكرت في إنهاء الخطبة لكني لم أجرؤ على اتخاذ هذه الخطوة فقد كانت صعبة جدًا ومؤلمة، حاولت أن أتقبله.. قلت سأحبه يومًا ما.

شعرت تدريجيًا ببعض الارتياح ولكنه لم يكن ارتياحًا.. كان اعتيادًا ونوعًا من الرضا بالواقع وتقبل الحال مهما كان سيئًا، فلم يكن هناك ذلك النوع من التآلف الذي أنشده، وتدريجيًا كلما اختلفنا شعرت بالنفور، حتى إنني كنت أصل للاختناق، وكلما أهداني هدية أو حدثني بكلمات من الغزل والحب امتعضت وغص حلقي، فأغلق الهاتف وأبكي، وإن جاء لزيارتي وحاول أن يلمس يدي كأن حريقًا يشتعل بجسدي، ويتساءل كياني كله، كيف سأعيش مع رجل أبغضه؟ ولكن كيف لي وأنا في الثالثة والثلاثين أن أنهي خطبتي وأعود وحيدة تنهشني ألسنة الأقارب والجيران والأصدقاء أيضًا.

كان مرض جدي بدأ يشتد وكان رغم مرضه يصر على الخروج للمقهى الذي يجتمع فيه رفاقه القدامى الذين يتساقطون واحدًا تلو الآخر، وكلما غاب أحدهم عاد جدي بحال أسوأ، وكان يعود ومعه كل يوم شخص ما شاب أو كهل أو بين الاثنين ليطمئنوا إلى أنه وصل إلى بيته بسلام.

وفي إحدى المرات تحمل عناء إيصاله للمنزل شاب في منتصف الثلاثينيات كان خلوقًا طيبًا هادئًا وكان عاشقًا للتاريخ مثل جدي، كما أنه يعمل بالسياحة فكان يسافر ثلاثة أسابيع ثم يعود لأيام قليلة، وبين زيارة وأخرى لم يكن يتذكره جدي ولكنه كان يرحب به ويأنس بالجلوس معه وكأنه صديق قديم، ذاكرته في روحه وإحساسه القوي الشفاف، وليس في عقله الذي صار يخذله كثيرًا الآن.

صار "وليد" فردًا من العائلة يأتي ليقرأ لجدي الصحف ويستمع بشغف

لحكايات جدي التاريخية، وذكرياته العظيمة، ثم بدأ معي حوارات مقتضبة، بدأ يسألني عن خطيبي وعن موعد زفافي، كان يلاحظ حزني فيحاصرني بأسئلته حتى حكيت له كل مشاعري ومخاوفي، كنت أحتاج إلى صديق حقيقي، سألني ذات السؤال: كيف ستتزوجين من رجل تبغضينه؟

قلت: لست أبغضه.

- ولست تحبينه فكيف إذن ستتحملين قسوة الحياة معه؟

بدأ يحثني على أخذ تلك الخطوة التي كانت ترهبني أن أنهي هذه الخطبة، فاتخذت قراري بفضله وبفضل تشجيعه وإقناعه، ووقفت أمام الجميع وطويت هذه الصفحة.. بل مزقتها.

كان وجوده إلى جواري في هذا الوقت رحيمًا، فرغم أنني أشعر بقدر كبير من الراحة والحرية الآن، فإن هناك ألم ما بعد انتهاء العلاقة، أية علاقة وإن كانت غير سوية وغير مناسبة وغير محببة للنفس، ففي إنهائها ألم لا أدري لِمَ، ولكن هذا ما اكتشفته حقيقة.

تألمت لأجله أيضا فقد كان طيبًا وسخيًا في مشاعره ومَاله، العيب كان بداخلي أنا، فلو أنني تافهة بلا طموح كنت سأحبه وأتقبل الحياة معه.

ثم بدأت التعلق بوليد، صرنا نتحدث بشكل شبه يومي، يحكي لي عن يومه وأحكي له عن الموسيقى والشعر والمطبخ وجدي.

كان اليوم يبدو رائعًا بمحادثته ولكن كان ينقصني شيء ما، لم أكن أرى في وليد زوجًا أو حبيبًا، نعم ربما أحبه وأرتاح إليه، تلاقينا فكرًا وروحًا، هواياتنا واحدة وأحلامنا متقاربة، ولكن عندما أنظر إليه وأفكر أنه من الممكن أن أعيش أنا وهو في غرفة واحدة أشعر بالنفور، لا ليس هذا حبًا بالتأكيد. هي علاقة طيبة ودودة من الصداقة البريئة، ربما هو أيضا يفكر بي كذلك مجرد صديقة تشبهه ولكنه لم يحدثني عن أية امرأة في حياته، ولم يخبرني أيضا إن كان يحبني.

بعد شهور اشتد مرض جدي أكثر ولم يكن يغادر الفراش، هاتفني وليد ليطمئن على جدي ثم أخبرني أنه يحبني وأنه يود الارتباط بي، وعدته أن أفكر وأعدت التفكير بالفعل من جديد، ثم شعرت بالحيرة والقلق، فالمشاعر لا تنبت بالتفكير، أنا أعرفه منذ فترة ليست قصيرة، لو أن هناك مشاعر بداخلي كنت فورًا سأصرخ به حين ينطق أحبك وأبتسم في خجل وتملأ السعادة وجهي ويدق قلبي حتى يصل صوته لكل من حولي، مادمت لم أشعر بأي شيء إلى الآن فأنا بالتأكيد لن أشعر بشيء فيما بعد، أنتِ تخطيتِ الثلاثين عن ماذا تبحثين؟

تسألني "سحر" ابنة عمتي التي تزوجت فور تخرجها بأول من أحبها، تضيف: أتبحثين عن الحب؟ حمقاء، كل هذا ينتهي بعد الزواج.

كنت سأقاطعها وكأنها قرأت ما يدور برأسي: عن رجل مختلف؟

الرجال سواء متشابهون في كل شيء، في اللامبالاة والأنانية وطريقة الحديث والتملق، نعم أفهمك على الأقل تريدين رجل يفهمك ويتحمل المسئولية وهذا متوفر في هذا الشاب.. "وليد".

هممت بأن أرد بأية كلمة وأنا أنظر لها بدهشة ولكني صمتّ، لا داعي للنقاش الآن فأنا منهكة، هذا ما استطعت التفوه به وانسحبت لغرفتي لأتركها تجلس مع جدي هي وابنتها الوليدة "رنيم".. وهي الثالثة بعد ولدين، وعندما انصرفت ذهبت لأجلس مع جدي لأجده يجلس منتصب القامة ومبتسم يكاد وجهه يضيء، فكأنما ردت له صحته، حملت صينية صغيرة ببعض الشطائر ومشروبه المفضل ثم جلست على طرف الفرش:

أنت اليوم أفضل يا جدي. يبدو أنك تحسنت بعد رؤية رنيم وسحر.

- أنا أشعر براحة كبيرة الآن يا أميرتي.

- يا الله.. لي زمن طويل لم أسمعك وأنت تناديني بلقبي المفضل "أميرتي".

أمد يدي له بكوب العصير لأسقيه فيتناوله مني ببطء..

- سأشرب أنا، أنا بخير.

لم ترتعش يداه كالعادة بل كان قويًا وحاضرًا بكامل إدراكه.

- أنا أنتظر الموت يا بسمتي فماذا ستفعلين؟

- جدي أنت حقًا تعرفني وتهتم لأمري؟

- بالطبع، أنتِ أميرتي الصغيرة، والآن إن تركتك سينهشك أعمامك، ماذا ستفعلين بمفردك؟ لا سند لكِ ولا أحد يأخذ حقك، ولكن لا تقلقي، المحامي سيتصرف بكل شيء، حتى تعلمي أن جدك العجوز يقرأ المستقبل جيدًا كما يحفظ الماضي وسيدبر لكِ كل شيء.

- جدي أرجوك لا تفكر الآن بالموت.

- أنا متصالح معه، هذا العالم لم يعد عالمي، أنتِ فقط من جعلتني أتشبث بهذه الحياة إلى الآن على أمل أن أراكِ عروسًا، ولكن لا يوجد أمير في هذا الزمان يستحقك ويقدرك، عليكِ أن تتحملي نتيجة قرارك، وأن تكوني قوية في وحدتك.

اختنق صوتي وشعرت بالدموع تنساب على وجنتي..

- أنت سندي ياجدي أرجوك لا تقل هذا.

- الحياة مهما طالت ستنتهي لا محالة، ناوليني المصحف.

ملت يمينًا لأحمل له مصحفًا كبيرًا من فوق الطاولة التي بجوار الفراش، وبدأ يقرأ بصوت خافت وبتركيز شديد، راقبته بصمت ثم مددت جسدي إلى جواره.

كان الليل قد خيم لا أدري كم الساعة الآن ربما غفوت للحظات أو ساعات لا أدري، كان جدي لا يزال منصرفًا تمامًا في عالمه، شردت في حديثه، الآن عاد جدي الحكيم الهادئ كم افتقدته طوال الثلاث سنوات الماضية بعد أن اشتد عليه المرض وضعفت ذاكرته، نظرت له فوجدته مبتسمًا يغلق المصحف في هدوء ثم يناوله لي لأضعه ثانية على الطاولة..

- فيما تفكرين؟

قالها وهو يربت على كفى.

- أنا أحبك كثيرًا يا جدي فلا تتركني.

- حزمت أمتعتي يا أميرتي.

- أشعر وكأنك تشتهي الغياب.

- مللت جسدي وآلامه ومللت الدنيا، هنا لم يعد أي شيء يحتمل.

مال بجسده للوراء واستند لظهر الفراش فوضعت وسادة أخرى تحت رأسه، فنظر لي بجانب عينيه نظرة واهنة ثم تمتم بشيء لم أسمعه وشخصت عيناه لأعلى وفغر فاه.

كان شيئًا مرعبًا، كان يتحدث حالا ويبتسم وفجأة صمت كل شيء، شعرت بألم كبير يجتاحني، الآن أصبح ظهري للعراء، ماذا كان سيحدث يا جدي لو بقيت معي بضعة أيام أخرى أو بضعة شهور، نبدو أنانيين جدًا في تمسكنا بمن نحب، نتشبث بهم معنا في تلك الحياة الفانية، نرجو الله أن يبقيهم ولو كانوا يتألمون والله أرحم بهم منا، عندما يبلى جسدهم ويؤلمهم بشدة تحلق أرواحهم لأعلى لتتحرر من تلك الأجساد الواهنة، يتحررون من الألم ومن عالمنا السيئ البغيض، ماذا نعلم نحن عن الموتى بعقلنا القاصر؟ إنهم ينتقلون لمكان أكثر رحابة وبهجة.. إنهم الآن بلا أمراض.. وبلا آلام.. وبلا حزن أو قلق،

مات جدي واتشح منزلنا بالسواد، امتلأ بالمعزين عن آخره، كل الأشخاص من المعارف والأقارب والأصدقاء، الذي كان يشتاق إليهم ويتمنى رؤيتهم خاصة في أيامه الأخيرة، ولم يزوروه، والآن وقد أصبح جسدًا باردًا بلا حراك أتوا إليه يودعونه بعد أن ذهبت روحه لعالم آخر لا نعرفه واستحال عليهم سماع صوته وضحكاته وحكاياته.

الآن كُشف ظهري وحملت الهم كله على كاهلي وحدي، فحتى أمي

وأبي حينما أتيا لزيارتي أتيا كالغرباء يؤدون واجب العزاء ثم يعودون إلى منازلهم، لا أحد منهما تجرأ وعرض عليّ العيش معه، انتظرت أن يفعلها أحدهما ولكن أيًّا منهما لم يفعل، لكل منهما بيت وزوج وأبناء لا طاقة لهما بي.

ولكنهم اجتمعوا جميعًا مع بقية أفراد العائلة لتقسيم الإرث، وفاجأهم المحامي بما كتبه جدي لي ليعيشني على الأيام التي سأقضيها بدونه.

مر أسبوع واحد وانتهى كل شيء.. انفض الأقارب والمعزون والأصدقاء، فقط بقيت عمتي على اتصال معي، وبقيت أنا بمنزل جدي وحيدة وسط جدران باردة قلبي ينزف حزنًا وروحي تنزف آلام الوحشة والاغتراب.

الليل طويل وهادئ ورتيب، لا صوت لأي شيء، الصمت يخيم بحزن عميق على المنزل كله، رن هاتفي برقم وليد..

- الآن تعزيني؟

- حزنت بشدة عندما علمت الخبر، لم تسمح لي الأقدار أن أودعه، كنت مسافرًا وعدت الأمس فقط.

- لا عليك.

- البقاء لله.

قالها بصوت حزين يقترب من البكاء فصمتُّ، كنت قد تعبت من الرد وشعرت أنني آلة بمجرد أن تسمع جمل المواساة ترد تلقائيًا والآن ربما فرغت بطارية تلك الآلة.

- ماذا بكِ؟

- منهكة، منهكة حد الألم وضائعة حد اليتم.

- أحبك.

- لا تقلها فأنا لا أستحقها.

- لِمَ؟

- لأني لا أراك سوى صديق.

- هل هذا قرارك؟

- نعم.

- متأكدة؟

- نعم.

- وأنتِ وحيدة ومتعبة هكذا وحزينة تتخذين هذا القرار؟

- لأنني كذلك أصر أكثر على القرار، لن أرتبط لأنني بحاجة إلى يد تأخذ بيدي وتربت على كتفي، لأنني ضعيفة وبحاجة إلى سند أتكئ عليه أيًّا كان هذا السند، هل ترضى أن تكون كذلك فقط لأنك أحببتني؟!

- ولكني كنت أشعر أنكِ تبادلينني ذات الشعور.

- أنا أكن لك مشاعر طيبة ولكن كصديق، أنا الآن أحتاجك كأخ وصديق أكثر من أي وقت وأكثر من أية صفة أخرى.

- لن أستطيع.

وخرج وليد من حياتي، لم أشعر بالندم لذلك، عذرته فهو لن يحتمل وسط تفاصيلي اليومية أن أحكي له يومًا عن رجل غيره دخل حياتي، كان صريحًا معي ومع نفسه وأنا أيضًا كنت صريحة، فقط كنت أحتاج إلى صداقته ووجوده معي في هذه المحنة حتى أتجاوز آلامي وأبدأ حياة جديدة أعتمد فيها على نفسي،

البيت يبدو أكثر رتابة ووحشة ورهبة، هذا البيت الكبير الذي كان يتسع لعائلة كبيرة من الأبناء والأحفاد يلتفون حول الجد الكبير أصبح خاليًا إلا من أنفاسي التي ترتد فيه كالرياح الغاضبة فتحدث صفيرًا يؤلمني صداه.

ماذا سأفعل الآن؟ كيف سأقضي أيامي المقبلة؟ صحيح أن جدي ترك لي دخلا يكفيني ولكن لابد من عمل يقتل وقتي الذي ينحرني كل مساء ببطئه.

هل من الجنون أن أمارس هوايتي؟ أمسكت بآلتي الموسيقية وبدأت العزف، هذه الآلة هي الأخ والصديق، السعادة والأمل.

اتصلت بي ذات صباح صديقة تخبرني بأن موسيقي شهير يحتاج إلى عازفة كمان جيدة لتنضم إلى فرقته، وأنه سيجري الاختبار بعد أسبوع، فهو يُحضِّر لحفل ضخم بعد شهرين بدار الأوبرا.

أشكرها على هذا الخبر الرائع وأسهر الليل أتدرب وأفكر.. هل لا يزال هناك متسع للحلم والأمل؟!

هل من الممكن أن أحقق حلمي القديم وأصبح عازفة حقًّا؟

بالفعل ذهبت إلى القاعة لأتقدم للاختبار، كانت هناك خمس فتيات يخضعن للاختبار وعندما جاء دوري ارتبكت سأقابل الموسيقار الذي طالما عشقت موسيقاه وعزفتها وحفظتها عن ظهر قلب، وشعرت وأنا أمايل مع القوس على أوتار الكمان أنني أرقص وأطير على أنغام الموسيقى وعندما انتهيت صفق لي كل من في القاعة، وابتسم الأستاذ ومد يده يصافحني ثم قال في حماس: تأتي هنا غدًا.

وكانت البداية لعالم جديد صاخب ورائع أخذني من وحدتي وحزني وأنساني همومي كلها. وظللت أعمل مع هذا الفريق أربع سنوات من البهجة، ولكن ظلت هناك غصة ما لا تتركني، ذلك المسمى بظل رجل، يده، قلبه، رعايته، ضمته، صدره الذي أغفو عليه في المساء وكتفه الذي كلما ضاقت بي الدنيا سأتكئ عليه وأبكي، أنفاسه الدافئة في ليالي الشتاء، والحديث مجرد الحديث لمن يفهمني ويستوعب ألمي وشكواي. وضحكة الصغار كلما رأيتهم في الطريق بالشرائط البيضاء تزين رؤوسهم وهم يحملون حقائبهم الصغيرة في طريقهم إلى المدرسة، يرتجف قلبي وأكاد أنخرط في بكاء مرير.

ثم أعود لأتساءل هل لازال هناك متسع للحلم والأمل؟

بعد السابعة والثلاثين أي حلم يبقى وأي أمل؟ أضحك ساخرة وألملم أحزاني فوق وسادتي وأغفو.

في نهاية السنة الخامسة لعملي الجديد سافرنا لإحدى الدول العربية لنشارك في مهرجان للموسيقى، وهناك عزفت بروحي، كنت أحلق مع آلتي، كنا نمتزج جميعنا كفريق داخل الموسيقى حتى قدمنا عرضا هائلا ومميزًا، كانت رحلة رائعة فقد قضينا أجمل أيام داخل الفندق وفي التدريبات والتسوق حتى أتتنا دعوة من شخصية بارزة بالمدينة للعشاء على سفينة في عرض البحر وطلبني بالاسم للحضور مع قائد الفرقة وذهبت بكامل أناقتي أتأبط ذراع أستاذي وكانت المائدة تضم الكثير من الشخصيات، سياسيين وسفراء وموسيقيين وشعراء، حاول أحد الحضور التودد لي، لم ألتفت كثيرًا لاهتمامه بي، مال صديقي سعيد عازف القانون هامسًا: هذا الثري يبدو معجبًا، ضحكت وتغاضيت عن الأمر، لفت انتباهي شاب نحيل، كان أكثرهم هدوءًا وأقلهم وسامة وأناقة، بدا بسيطا واثقًا يتحدث على قدر السؤال، متأملا، صامتًا أغلب الوقت، ثم استأذن الحضور وذهب إلى طرف السفينة يشعل لفافة تبغ، وهو يتابع السماء والبحر، وكنت أنا أقف على حافة السفينة فسمعته خلفي، لا أدري لماذا شعرت به يشبهني، شعرت بشيء يعتصر قلبي، عندما رأيته يخرج عن الجمع وذلك الإطار المضيء، ويقف وحيدًا شاردًا لا يليق به هذا الصخب والبذخ، لا يجد نفسه في الزحام والبهاء، وثرثرة البشر، فكرت أن أتحدث إليه ثم عدلت عن الفكرة، كنت واقفة أتأمل الليل والقمر المنعكس على صفحة الماء حتى سمعت صوتًا رزينًا آسرًا: هل تشعرين بالغربة؟

التفت إليه كان لايزال نظره في اتجاه الأفق..

- ربما

- كيف حال مصر؟

- تبلى حسنا.

فضحك ثم التفت إليّ وبابتسامة متزنة همس: أنتِ انسانة جميلة جدًا وأرجو ألا تعتبري هذا غزلا، بل هو تقدير لشخصك لا ملامحك وأناقتك.

- تبدو كفيلسوف.

- إطلاقا.

- أو أديب.

- كيف عرفتِ؟ (ارتفع حاجباه وهو ينفث دخان سيجاره).

- من أنت ولماذا أنت هنا؟

- هل أثرت فضولك؟

- ربما.

- قد نلتقي ثانية وتعلمين عني كل شيء، وقد لا نلتقي أبدا.

شعرت بغصة في حلقي وتقلص في معدتي، وحرج كبير من كلماته وشعرت بالسخونة تعتلي وجهي فانصرفت، وأحسست بنظراته تثقب ظهري لكني لم ألتفت أبدًا.

في اليوم التالي كان يتعين علينا أن نكون في المطار في الثالثة مساء، استيقظت في الثانية عشر ظهرًا كان لا يزال هذا الرجل يشغل عقلي، كنت احتسي قهوتي في الشرفة أفكر لماذا يخفق قلبي عندما أتذكره؟ ولماذا أرغب بهذا الشكل في أن أراه ثانية؟!

هل يمكن أن يقع المرء فريسة للحب من حوار قصير كهذا؟ كنت أراجع صورته في مخيلتي ألف مرة، طريقة حديثه، وقفته، شروده، كل ما فيه لمسني، لمس شيئًا ما بداخلي فقد شعرت بعيونه تكشف روحي وعقلي حتى دون أن ينظر لي، ودون أن يتفوه بكلمة، ولكنه يبدو غير مبالٍ على الإطلاق، ويبدو أن وحدتي تؤرقني وبدأت أعاني فراغًا عاطفيًا، فأنا لست كذلك أبدًا، كم من الرجال والمعجبين بعزفي يقابلونني ويمنحونني الهدايا،

أقابلهم كل يوم ولم يهزني أحد، كنت أنتظر آدم عمرًا كاملا، كنت أنتظر ذات الشعور الذي شعرته معه، كان حب آدم كأنه لعنة تطاردني في حياتي فتقضي على كل حلم في الحياة، كل حب وكل رجل أبحث فيه عن آدم، عن ذلك الشعور الذي أحسسته معه فيخفق وانسحب أنا سريعًا. ولكن هذه المرة الوضع مختلف تمامًا.. شعرت أن قلبي سُرق رغمًا عني.

نفضت أفكاري ولملمت أشيائي، كانت الساعة تشير للثانية ظهرًا، بعث لنا رجل أعمال شهير بالمدينة سيارة تقلنا للمطار أنا وقائد الفرقة.

في منزلي بالقاهرة، بيتي القديم الذي تركه لي جدي الغالي، كانت الوحدة تقتلني يومًا بعد يوم بين أركانه، ولكن عروض الزواج لم تكن تشبهني، ولم لا تشبع روحي أبدًا.

أنا لن أبيع نفسي، لن أبيع عمري، أنا أنتظر الراحة والسكن، أنتظر آدم؟ ربما، أو ذلك الشعور الذي يشبه شعوري بآدم يومًا ما.

بعد شهر.. كان موعد حفلنا الكبير بدار الأوبرا المصرية وكنت مشغولة بالتدريب طوال هذه الفترة مما خفف من وطأة الحزن وسيطرة أفكاري المؤرقة.

في الحفل حيث كنت أستعد بحجرتي أتى لي أحد العمال بالمسرح بهدية، وعندما نزعت الورق الملون والشرائط وجدتها كتابًا بغلاف أنيق لصورة عازفة تمسك بقوس الكمان لم يظهر وجهها وكُتب عليه "عازفة الكمان".. رواية بقلم "علاء رأفت".

فتحت الصفحة الأولى إهداء الكاتب:

"إلى عازفة الكمان التي أسرتني بعزفها حتى ألهمتني بسطور هذه الرواية"

أول نسخة مهداة لكِ.. إلى ملهمتي.

إمضاء هشام رأفت

وكانت صورته تزين ظهر الكتاب، هو ذاته الشخص الغامض الذي قابلته على السفينة في سهرة العشاء، ابتسمت.. أن أكون سببًا في كتابة رواية فهذا شيء رائع وغير مسبوق، أن أكون ملهمة فهذا شيء يدعو للفخر، وضعتها على المنضدة مع باقي متعلقاتي ثم ذهبت للحفل.

ليلتها عزفت كما لم أعزف من قبل، خلقت لعنان السماء وراقصت السحاب وعزفت معي الطيور والنجوم وصفقت لي أوراق الشجر.

وعندما شرع الجمهور في التصفيق شعرت بقدمي تلامسان الأرض من جديد.. وكنت ما أزال منتشية.

عدت للمنزل أقرأ الرواية بشغف، القصة كانت حزينة وتشبهني كثيرًا في تفاصيلها، أشعر أن بها جزءًا كبيرًا من حياتي، كيف أخبره عزفي بقصتي؟ كيف ألهمته بكل ما بداخلي؟ بأحلامي ومشاعري التي لم أخبر بها أحدًا؟ النهاية جاءت غامضة ولكنها تحمل الكثير من الأمل.

لم أستطع النوم أبدًا حتى انتهيت من قراءتها، وفي الثامنة صباحًا قمت لأحضر قهوتي فسمعت رنين هاتفي الأرضي، عادة لا يتصل عليه إلا الأقرباء، وعندما رفعت السماعة أتاني صوت من الماضي أعرفه جيدًا.. كان آدم، عاد من سفره ويريد مقابلتي، دعوته للعشاء بمنزل جده نستعيد ذكرياتنا الدافئة واتصلت بعمتي وسحر وأحضرنا أطيب الطعام.

كنت منهكة تمامًا فأنا لم أنم بالأمس ووقفت أساعد عمتي في طهي الطعام وترتيب المنزل، ورغم ذلك كنت في قمة النشاط، فقد كنت أشعر بسعادة مبهمة لأنني سأرى آدم من جديد.

ولكن عندما حدث اللقاء لم أشعر بتلك اللهفة التي توقعتها، لم أشعر أنه هو آدم الذي كنت أعرفه، تبدل مظهره وتغيرت قليلا ملامحه، طريقة حديثه، وكان هذا ينم عن تغير كبير في شخصيته.

اجتمعنا حول مائدة الطعام في دفء عائلي كنت أفتقده كثيرًا، فالكثير من

الأقارب قطعوا صلتهم بي بسبب مهنتي، ومن لايزال على اتصال بي مللت أنا وده من كثرة الحديث عن حياتي ووحدتي وعيشي بمفردي في منزل كبير، أشرد قليلا ثم أنظر إلى آدم وأتأمله.. أين ذهب حبي له وانتظاري الطويل؟ الآن ليس سوى أخ، ابن العم وصديق الطفولة والصبا، استرجعنا الكثير من الذكريات، تذكرنا جدي ودعونا له بالرحمة والمغفرة وعندما انصرف الجميع احتضنت فراشي وسقطت في سبات عميق.

في اليوم التالي بدأت أرتب مواعيد تدريبي للحفل القادم، وفي المساء أعدت النظر لتلك الرواية التي حيرتني، فسمعت صوت هاتف المنزل المزعج ينذرني برنينه الصاخب، رفعت السماعة.. كان صوت آدم يتحدث بألفة وبشكل خاص جدًا، يريد الحديث في ذكرياتنا الخاصة التي كانت تجمعنا أنا وهو في بداية حياتنا، يتحدث عنها وكأنها كانت تحدث بالأمس وكأنه لم تمر علينا عشرون عامًا.

يخبرني أنه يفتقدني كثيرا ويقدم لي عرضا بالارتباط والزواج..

- الآن؟! بعد كل هذا العمر تفتش في ماضيك لأخرج أنا من زوايا ذكرياتك، ككتاب قديم فوق رف مكتبتك تنفض عنه الغبار وتحاول أن تقضي معه وقتًا ممتعًا، رغم أن الكتاب على الرف عشرين عامًا فإنك لم تفكر أن تتصفحه حتى ولو للحظات.

صمت ذلك الصمت الرتيب والكئيب.. شعرته في أنفاسه الساكنة كأنه يقول: أنتِ نداء عقل وحنين قلب عاد لوطنه وعائلته.

قطعت صمته: لا يمكنني أن أقبل يا آدم.. أنت أخ وصديق.. فقط صديق، وأغلقت الخط.

- مجنونة أنتِ بالتأكيد أليس هذا هو آدم.. حلم عمرك الذي انتظرته عامًا بعد عام فكيف ترفضينه إذن؟

كان ذلك الصوت بداخلي يعلو ويؤنبني..

- لأنني لم أعد أحمل له ذلك الشعور.. وهو لا يحمل لي حبًا أبدًا، هذا ليس حبًا، ليس هذا هو الحب الذي أنشده.

- أي حب تنشدينه؟ هل لايزال هناك متسع للانتظار والبحث؟ آدم فرصة هائلة، هو حبك ومن دمك وقد عاد ليخبرك أنه لم ينس ويطلبك للزواج، أنتِ تموتين من الوحدة، هل لايزال لديك أمل في أن تجدي شخصًا مثله يحبك ويطلبك للزواج في عمرك هذا.

حاولت أن أنفض كل هذه الأفكار من رأسي، حاولت أن أخرس ذلك الصوت الذي يؤنبني لكنه لم يكفِ أبدًا، ظل يردد كلماته ولومه بغضب كأنه يجلدني، فتحت الشرفة ووقفت بجوار زهوري، أتأمل ضوء النهار الذي بزغ ببطء، أضيع بعقلي وأذني وسط خطوات المارة القليلين وتغريد العصافير الصاخب والمتصل ولكن الصوت بداخلي كان أكثر صخبًا وشراسة:

- أعلم أن الكثير من المعجبين يطرقون بابك وأنك تجدين خللا ما في طريقة عرضهم وشخصياتهم، ولكن يبدو أن الخلل بداخلك أنتِ، أفيقي أنتِ الآن على أبواب الثامنة والثلاثين، الوحدة القاسية تقتل روحك كل يوم، أفيقي فليس هناك متسع للحلم ولا التفكير.

قطع هذه الفقرة من العذاب صوت هاتفي المحمول ينذرني بوصول رسالة: "هل تقبلين دعوتي للعشاء اليوم أو غدا لأعلم رأيك بالرواية"

إنه هو.. هشام.. ذلك الروائي الغامض، كتبت له الرد والابتسامة لا تفارق شفاهي: "بالطبع فهذه النهاية لم تثلج صدري أتمنى أن أجد لديك نهاية أخرى، اليوم مناسب".

فجاء الرد: "إذن فلتكتبي النهاية التي تريدين، في الثامنة مساء العنوان التالي ....."

***

ذهبت للعنوان، سفينة في النيل نحتسي على ظهرها قدحين من القهوة، هكذا قال في رسالته الأخيرة.

بحثت عنه في وجوه الجالسين حتى عثرت عليه يجلس في ركن منعزل عن الجميع كعادته..

- الرواية رائعة وكأنك تكتب مشاعري، كيف فعلت ذلك وأنت لم تتحدث لي من قبل.

- ربما استشفيتها من روحك وأنا أتابع حركاتك وإيماءاتك ونظراتك وأنتِ تعزفين، استشفيت روحك الخفية وراء وجهك الملائكي المبتسم، إنسانة راقية ورقيقة ورائعة الجمال من الداخل ولكنها حزينة أغلب الوقت.

ثم بدأنا حديثًا لم نستطع إيقافه.

قال: أنا كاتب مشاكس، ظلمت كثيرًا في هذه الحياة، عشت طريدًا خارج بلادي بعض عمري وسجينًا بعضًا آخر، تزوجت وأنا شاب صغير بمجرد تخرجي من الجامعة، كنت وقتها أظن أنني أعيش قصة حب حقيقية ولكن الحقيقة أنها كانت ممثلة بارعة، استطاعت أن تشعرني بأنها توافقني في كل ميولي وأحلامي حتى تزوجنا وانقلب كل شيء للضد وظهر الواقع جليًا أمام أعيننا وصدمنا فانفصلنا، وحمدًا لله أننا لم ننجب رغم أن زواجنا استمر لعامين.

قص لي الكثير والكثير، عاش حياة مختلفة، كاتب بوهيمي فوضوي غير مكترث بأي شيء.. لا حب ولا عائلة، لكنه أخبرني أن ظهوري في حياته مختلف، كانت خيوط الحوار بيننا لا تنقطع بل تمتزج أكثر وأكثر وكأننا كنا نعيش معًا منذ طفولتنا وإلى الآن، وكأننا صديقان حميمان، افترقا بعض الوقت ثم عادا ليلتقيا، ربما أنا لم أقابله الآن بل كان هذا موعدنا للعودة.

اختلطت المشاعر بداخلي، الراحة التي لم أشعر بها من قبل والطمأنينة في

حديثه وفي عينيه، والخوف من مجهول ومما قصه لي عن حياته السابقة.

قمت من مقعدي وذهبت لطرف السفينة وأنا أتأمل النجوم السابحة انعكاسًا على صفحة الماء فشعرت به يتبعني وهو يشعل لفافة تبغ وينفثها إلى جواري، قلت:

- لماذا جعلت نهاية الرواية غامضة؟

- ليست غامضة هي مستمرة باستمرار الحياة ليس لها نهاية كما أنها انتهت بأمل.

- الأميرة تركت إمارتها وقصرها وعائلتها وسارت في الشوارع تمارس هوايتها كعازفة كمان في الحانات وعلى الأرصفة ولكن رغم ذلك تظل أميرة، أعجبني كثيرًا تمسكها بحلمها للنهاية.

- ولكنها ألهمت بائع الكتب الفقير، منحته السعادة والأمل في الحياة جعلته برواية واحدة يصبح أديبًا عظيمًا.

- ولكنه سيظل صعلوكا، الأميرة لا يليق بها سوى أمير.

- قال بصوت بائس وهو يستدير استعدادا للرحيل في حزن وحرج: معكِ كل الحق، الأميرة لا يمكن أن ترتبط بصعلوك، لا يمكن أن ترتبط سوى بأمير يستحقها.

هم بالسير فأمسكت بذراعه وأوقفته: ولكنه أمير بالفعل.

فهمس برجاء حزين: كيف؟

فنظرت إلى عينيه مباشرة: بحبه لها صار أميرًا لأنه منحها الحياة بعد أن شارفت على الموت، منحها ذلك الشعور بالسعادة الذي افتقدته لسنوات، منحها الأمان، فهو توأم روحها حتى إن كان صعلوكا.

ابتسم وأمسك بيدي ثم أخرج من سترته علبة أنيقة.. فتحتها لأجد قلادة نقشت باسمي فابتسمت بخجل وطأطأت رأسي أنظر للأرض،

طلب أن يعلقها بعنقي قال: هذا أول الطريق دعينا نفتح الباب بلا خوف

ونسير معا تلك الممرات الموحشة، رغم الضباب والظلام حولنا سنصل لأن كلا منا يستند إلى الآخر.

شعرت بقلبي يخفق، الآن يخفق بشدة، الآن أصرخ من داخلي هذا الرجل الذي لا أعرفه يحمل لي أمانًا وراحة لم أشعر بهما في حياتي من قبل، هذا هو توأم روحي الذي انتظرته، الأحباء تلتقي أرواحهم سريعًا ولا يحتاجون الكثير من الوقت لمعرفة مكانتهم في قلوب بعضهم البعض فتلك الإشارة تظهر من النظرة الأولى والكلمة الأولى، كل ما يأتي بعد ذلك هو فقط دليل إثبات أن ذلك الشعور الذي كان في البداية حقيقيًا وليس وهمًا.

صرخ ذلك الصوت بداخلي امنحيه إذن بعض الوقت لتتأكدي إن كان لايزال هناك متسع للحلم والأمل والحياة.

نعم لا يزال هناك متسع للكثير مادام في القلب نبض وفي الروح حياة، أنا الآن أعيش أروع حلم، لو أنني أعلم أنني سأقابل هذه السعادة في نهاية الطريق لهان كل انتظار وكل حزن وكل دمعة ذرفتها في وحدتي.. فقد كان كل هذا ثمنًا بسيطا لتحقق الحلم.

"الياسمين..
رسالة حنين
من لا أحد
إلى لا أحد".

محمود درويش

رسائل الياسمين

بعد رحلة سفر شاقة وصلت إلى بيت جدي الذي كان بيت الأسرة في الماضي، وفور أن فتحت البلب، انتابتني حالة من ذلك الحنين الذي يفطر القلب وينتزع الروح، كانت صورة واحدة تُخيِّم على ذاكرتي، ذلك الغائب الذي أوجع قلبي وأنهكه، ذهبت إلى الغرفة التي كانت يومًا ما غرفتي، وفتحت درج مكتبي الصغير، كان يحوي دفاتر الدراسة وبعض الكتب التي كنت أشتهي قراءتها، ثم وقع بصري على مظروف كبير تفوح منه رائحة الياسمين، فتحته لأجد خطابات وصور لي وأنا صغيرة بضفيرتي الطويلة تحملني أمي وتحتضن أخي، عشرون عامًا من الغربة والفراق مضت بهذه المسافة.. لا المكانية فقط بل والروحية أيضا، أتذكر عندما كنا نسهر فوق سطح منزلنا نزعج الطيور بصوتنا ونحن ننشد الأغنيات، كنت أحمل دميتي وتحمل أنت الكرة، ألاعبك بالكرة فتجعل من دميتي صديقة مشجعة لتسديداتي على مرماك، وعندما كنا نجلس في شرفة منزلنا القديم في شهر رمضان ننتظر الأذان لنرى الشوارع خالية ونتناول إفطارنا معًا في الهواء، وفي الليل ننير مصابيحنا بالشموع ونغني مع الرفاق ثم نذهب لنشتري ألعابًا نارية نحدث بها صخبًا يجعلنا دومًا عرضة لصياح الجيران والمارة وسبابهم. أتذكُر يوم نجاحك في الثانوية العامة؟! يومها صنعت لك كعكة بالشيكولا، كانت أول تجربة لي والغريب أنها كانت ناجحة وأعجبت الجميع، واحتفلنا معًا.

وشجرة الياسمين التي كانت في حديقة جدي، تلك الحديقة التي زرعها على سطح البيت، كان أكثر ما يعجبني فيها هذه الشجرة، كانت رائحتها

تسعدني، كنا نقطف منها الكثير ونضعه في جيوبنا وعندما ننام نخرجه ونضعه على وسادتنا ونغفو بابتسامة قلوبنا.

في أول خطاب بعثته لك بعد سفرك ملأته بزهور الياسمين، فهي بالتأكيد ستذكرك بي وبطفولتنا معًا، وبعدها أخبرتني أنك زرعت الياسمين في شرفة منزلك لأن عطرها يشعرك بالدفء، دفء العائلة، قلت إن في عطر الياسمين ربتة أمي وضحكتي الطفولية التي كانت تؤنسك، وصرت تبعث لي أنت زهور الياسمين مع كل خطاب.

عند سفرك أول مرة بكيت بكاءً مريرًا، كنت أشعر ببكائي ينحرني ويقطع شراييني، فكنت أنت أخي وصديقي، طفولتي وسعادتي، وأملي وأماني، ولكنك ذهبت وبعدها تبدَّل كل شيء، حتى عندما عدت تبدَّلت، من وقتها لم أعد أهتم لإجازاتك السريعة التي تنتهي برحيل ووداع ودموع بشكل متكرر يجعلني أنهار، ولم تكن تلك الزيارات الخاطفة تروي ظمئي، كما أنك قد صار لك عالم آخر، زوجة وأبناء وبيت آخر غير البيت الذي كان يجمعنا، وظل الياسمين هو كل ما تبقى منك.. وطيف لذكرى مغلفة بعطره، أغلقت المظروف محدثة نفسي: تلك الذكريات كانت تحت التراب لماذا أنبش الآن قبرها، سأهيل عليها التراب ثانية وليتني أستطيع أن أهيل التراب على ذاكرتي التي لا تهدأ.

وخرجت من حجرتي لأستعد لاستقبال أخي.. فاليوم ستبدأ إحدى زياراته الخاطفة.

"والآن أشهد أن حضورك موت
وأن غيابك موتان
والآن أمشي على خنجر وأغني
قد عرف الموت أني أحبكِ
أني أجدد يومًا مضى
لأحبكِ يومًا وأمضي".

محمود درويش

بريد إلكتروني

"عندما يصبح عالمك غريبًا.. والوحدة هي الرفيقة الوحيدة، بيتك الكبير بارد تكتظ جدرانه بعشرات اللوحات لصور أحباء رحلوا وذكريات طي الورق والجدران تحاول أن تستعيد دفء لحظاتها لتنهل بعضًا من الشعور الذي مضى ولم يعد له وجود، محاولا تخفيف وطأة الشعور بالحنين الذي يتملكك ويعتصر قلبك، فتجد الذكريات تحاصرك وتشعر وكأنك تعيشها من جديد داخل الفراغ، تلك الحياة البائسة قادتني لشيء أكثر دمارًا.
كنت أنا الابن المدلل لأسرة صغيرة ثرية جدًا أفرادها أبي وأمي وفقط، رحل أبي إثر أزمة قلبية ألمت به أثناء العمل، ولحقت به أمي بعد وفاته بشهر واحد حزنًا عليه، وبقيت أنا بثروة كبيرة وعمل لا أطيقه، كنت ما أزال أدرس في كلية الهندسة التي أكملتها بالكاد بعد رسوب متكرر ونوبات ألم وإدارة لشركات أبي، فإن ما تركه لي أبي لو عشت حياتي كلها أنفقه لن ينتهي، فأهملت كل شيء.. العمل ودراستي، وانسقت لأصدقائي.. أو هكذا كنت أظن، رفيقان لي كانا هما الأقرب دائما، حاولا التخفيف من حزني فاصطحباني لأماكن لم تطأها قدماي من قبل، لا وجود فيها لكلمات مثل لا يصح، عيب، حرام، فهناك كل شي مباح ومتاح، خمر ونساء ومخدرات، وإن حدثتني نفسي بالضرر الذي سيلحق بي، أجيب بابتسامة ساخرة: أي ضرر بعد كل هذا؟ أي ضرر بعد ما أنا فيه، أنا نصف ميت بنصف جسد ونصف روح، أنا لا شيء سوى كتلة من الألم تتحرك على هذه الأرض، ليتني أموت سريعًا حتى أتخلص من هذا العذاب".

في مكتب أحد المحررين لباب المشكلات الاجتماعية جلس المحرر أمام حاسوبه يحتسي قهوته ويطالع بريده الإلكتروني، توقف قليلا عن القراءة عندما دخل إلى الحجرة أحد زملائه في الجريدة..

- هل اخترت الرسائل التي ستنشرها هذا الأسبوع؟

- نعم هذا الملف به قصص هذا الأسبوع.

يستكمل المحرر قراءته للرسالة شاردًا داخل الشاشة بينما يغادر زميله الحجرة..

"أن تمتطي جواد المساء.. رفيقك الذي يسترك في نزواتك وأخطائك، وعندما يأتي الصباح تخرج إلى العالم بوجه أكثر احترامًا، أن تعيش بوجهين ويتصارع بداخلك شخصان، الأول طيب هادىء، والثاني شيطان يسحق الأول ويجعله يستسلم له في كل شيء، كنت في مرات أتألم كثيرًا مما أفعل وأقضي الليل في البكاء، أتذكر ضمّة أمي الحنونة.. لو كانت هنا ما كانت ستتركني لهذا الضياع، أذكر وجه أبي وصلاته التي كنت أصاحبه فيها إلى المسجد، أشتاق للركوع والسجود وأشعر بالخجل من كل ما فعلت، فأنا مدنس بالكامل ولا أستطيع الخروج من هذا الطريق، وأنا هزيل ضعيف ووحيد، وفوق ذلك حزين.

في ليلة كنت أشعر فيها باليأس التام، وكادت الوحدة تقتلني، فتنقلت بين صفحات الإنترنت ومواقع شتى، لفتت نظري كلمات نشرتها إحدى الصديقات على إحدى مواقع التواصل الاجتماعي، لم أكن قد تحدثت لها من قبل، الكلمات لشاعر راحل ولكني شعرت أن رسالتها وجهت لي شخصيًا، فبدأت الحديث معها عبر الرسائل الخاصة، بدأت بكلمات مهذبة للتحية فامتد الحديث بيننا للصباح عن كل شيء، هواياتنا القديمة والأشياء التي نحبها، كانت روحها نقية، تمتلك أشياء كثيرة أفتقدها، شعرت أنني سجين رغم كل ما أملكه، فهي تقرأ وتمارس الرياضة وترسم، تملك

روح فنانة حقيقية، كانت قد اختارت اسمًا مستعارًا بحروف مزخرفة، سألتها عن اسمها قالت: لا يهم الاسم. لم تمنحني أية بيانات حقيقية عنها ولكني تعلقت بها، وأدمنتها رغم ذلك، لا أدرى متى وكيف، فلم أرى صورتها قط، استمعت لصوتها عبر المحادثات الصوتية لبعض الوقت، كان رقيقًا ودافئًا، يمكنني أن أقول إن هذه الفتاة هذبتني وقومتني وأعادت بنائي من الداخل بكلماتها القليلة، لا أدري كيف يمكن للمرء أن يحب عبر الأثير وعبر هذا البعد، فهذه أول مرة أشعر فيها بهذا الإحساس، قصصت لها كل شي عني بصراحة مطلقة، ساعدتني لكي أترك أصدقائي وأعود للاستمرار في عملي وأستكمل دراستي التي تركتها ونسيتها.

بدأت بإصلاح كل شيء ولكن بخطوات وئيدة، بقرار واحد اتخذته صرت أقوى حتى تركت كل ما كنت أتناوله من مسكرات ومخدرات وانتظمت في الصلاة، وكنت كل يوم أزداد تعلقا بهذه الفتاة وألح عليها في أن أقابلها أو أذهب إلى منزلها وإلى أهلها وأقدم نفسي إليهم، ورغم أنني كنت أشعر بأنها تبادلني مشاعري فإنها كانت ترفض زيارتي ومقابلتي رفضًا قاطعًا، وفي ليلة حدثتني عما كانت تخفيه عني.. وسبب رفضها، وهو أنها مريضة مرضًا خطيرًا وستسافر لإجراء عملية جراحية خطيرة، وودعتني دون أن تترك لي حتى رقم هاتفها وتركتني أعاني القلق عليها والألم.

سافرت وكانت لاتزال تتواصل معي عبر البريد الإلكتروني ومواقع التواصل الاجتماعي حتى ليلة إجراء العملية، كانت كلماتها قليلة وأخبرتني أنها إذا كتب الله لها الشفاء ستخبرني بكل شيء عنها وستقبل طلبي وستدعوني لزيارتها والتعرف إلى أهلها، وإن لم تعد فسأعلم أنها رحلت عن عالمنا وأنها ستدعو الله أن أنساها. مزقتني كلماتها، صليت حتى الفجر وتضرعت لله ودعوته أن تعود لي سالمة.

بعدها مرت الأيام وثقيلة وقاتلة، كنت أشعر أن الساعات تقتلني ببطء، وتنحرني بسكين ثلم. مرت الأيام ولم يأتني خبر عنها، كنت أعلم أنها متيمة ببريدك تقرأه أسبوعيا حتى وهي مريضة.

مر الآن شهران على غيابها.. هما في حساباتي سنوات قاتمة، عدت لوحدتي ولحزني ولكني عاهدتها ألا أعود لعاداتي السيئة، اهتممت بعملي وحققت نجاحًا ملموسًا لأجلها، كل شيء تغير بداخلي وبحياتي كان بفضل روحها ولمساتها، لذا أنا أستمر في كل هذا لأنه يذكرني بها يشعرني بوجودها حولي، ولكن الحياة باردة جدًا وكئيبة بدونها.

أخبرني كيف يكون الحب عبر الأثير سببًا لكل هذا العذاب؟ كيف لامرأة تخرج من خلف شاشة صامتة تبدّل بروحها وكلماتها حياتي وترمم روحي وتنشئ كياني من جديد؟ كيف لامرأة لم أرها أن ترفعني إلى السماء في لحظة بوجودها وتخسف بي أسفل الأرض في لحظة أخرى بغيابها؟ كيف اختصرت العالم في شخصها فصارت عائلتي وطفلتي وصديقتي وحبيبتي وملاذي وملاكي الحارس؟ ليتها سمحت لي بأن أقف إلى جوارها في مرضها لأرد لها هذا الجميل وأودعها إن رحلت، ولكنني أعيش فقط بأمل وجودها وعودتها عاجلا أو آجلا، تقتلني غصة في حلقي وينحر أحشائي أفكاري في أن يكون هذا عقابًا لي على ما فعلت، ولكنني كنت ضحية ظروفي.. كيف تكون أقداري بهذه القسوة؟!

لقد فقدت أهلي.. أين تعويض السماء؟"

توقيع: علاء فهمي

تاريخ : 4/3/2010

ثم يمر برسالة أخرى..

"سيدي لقد قرأت الرسالة التي نشرتها بعنوان "الضائع"، هذه الفتاة في الغالب أنا أعرفها يمكنني أن أبعث لك باسمها المستعار على موقع

التواصل وبريدها الإلكتروني لتتأكد فهي صديقتي وكانت تقص لي قصتها مع هذا الشاب بشكل يومي وهي أحبته حقًا وبشدة ولأنها أحبته لم ترد أن تؤلمه أكثر أو تجعله يتعلق بها أكثر، هي فقط أرادت أن تصلح حياته قبل رحيلها فهي كانت تعلم أنها لن تعيش طويلا، وكانت تدرك جيدًا حقيقة مرضها فهي طبيبة، ربما تظنها قاسية القلب، فهي كانت تظهر قوة كنت أستغربها فيها ولكنها من داخلها هشة جدًا، كانت تتألم لفراقه ولكنها كانت كالأم التي تربي وليدها بالقسوة ليصبح رجلا يُعتمد عليه، ليستطيع أن يواجه الحياة بآلامها ومصائبها، هي فكرت أنه لن يتعلق بها إلى هذا الحد لم تكن تعلم أنه يحبها حقًا بهذا الشكل، فهما لم يلتقيا أبدًا، مجرد محادثات بسيطة، صوتية كانت أو كتابية، هي رفضت حتى أن يرى صورة لها، فكيف تدرك هي هذا؟ هي شخصية عقلانية هادئة وناضجة، لم يكن الحب في حساباتها أبدًا.. خاصة بعد مرضها، ولكنها أحبته.. ورغم حبها له كانت على يقين من أنها ربما كانت مجرد مرحلة في حياته، مجرد لعبة فكثيرات دخلن حياته من قبل وحطم قلوبهن، كانت تحاول إصلاحه قدر استطاعتها ولم تكن واثقة في نجاحها، كانت على يقين أنه سيمر شهر على الأكثر وسينساها تمامًا ويتحدث إلى غيرها عبر تلك المحادثات ليملأ فراغ لياليه الكئيبة كما فعل سابقًا معها، هي يا سيدي رحمها الله كانت رفيقة به.. لم تكن قاسية إلى هذا الحد، ليته يعلم ذلك ويدعو لها بالرحمة ويتقبل بهدوء رحيلها".

توقيع: منى

تاريخ: 20/3/2010

يتابع رسالة أخرى في البريد..

"سيدي.. قلت لي في رسالتك إن هذه الفتاة صديقة فتاتي، وإن لديها بريدها الإلكتروني ومعلومات أخرى عنها.. أنا لا أصدقها، أصارحك القول

أنا لا أريد أن أصدقها ربما تشابهت الحكايات، الآلاف يلتقون كل يوم على مواقع التواصل، هذه القصة تتكرر كل يوم، هكذا قررت.. إن أعلمتني بالبريد الذي بعثته لك قد يكون مطابقًا وقد لا يكون ماذا سأستفيد أنا إن تأكدت من رحيلها؟ أرجوك أنا لا أريد التأكد من عنوانها، أنا أريدها هي أن تبعث إليك برسالة أو اتصال هاتفي، هي بالتأكيد تتابع بريدك ولكن شيئًا ما يمنعها من التواصل معي ومعك.. وأنا هنا لا أزال أنتظر، لا تسلبني الأمل فهذا بالنسبة لي موت محقق".

يغلق المحرر جهاز الحاسوب الخاص به.. ثم يفتح الجريدة الموضوعة أمامه بتاريخ 25/5/2014

"وفاة رجل الأعمال الشاب غلاء فهمي إثر أزمة قلبية حادة".

"نكتب لأننا نريد من الجرح أن يظل حيًا ومفتوحًا، نكتب لأن الكائن الذي نحب ترك العتبة وخرج ونحن لم نقل له بعد ما كنّا نشتهي قوله، نكتب بكل بساطة لأننا لا نعرف كيف نكره الآخرين، وربما لأننا لا نعرف أن نقول شيئًا آخر".

واسيني الأعرج

رقصة فالس أخيرة

الموسيقى تلهمني، وضعت أسطوانة لروائع يوهان شتراوس، وبدأت الموسيقى تتسلل إلى أذني وروحي وأنا أحتسي قهوتي واقفًا في نافذة مرسمي الصغير في الساعة السادسة صباحًا، الطقس يبدو باردًا في هذا الوقت.. منتصف كانون الثاني، أتطلع للسماء تحجبها الغيوم وضوء النهار يبدو غامضًا مع الهواء الذي كان يراقص أغصان الشجر على وقع أنغام الدانوب الأزرق رقصة من خطوتين، عندها أتتني فكرة للوحة جديدة، وضعت قدح قهوتي على المنضدة ونزعت الورقة المشوهة بالألوان التي كانت على اللوح الخشبي وأحضرت فرشاتي وألواني وشرعت بالعمل، عكفت على هذه اللوحة أسبوعا كاملا نسيت فيه الطعام وربما النوم أيضًا، لا أدري كيف أنام وأصحو، لا أذكر سوى أنني كلما شعرت بالإجهاد أمسكت بعلبة سجائري ووضعت واحدة في فمي واتجهت لركن القهوة وصنعت قدحًا، رائحة القهوة مع دخان السجائر كان يرسم لوحة سريالية أخرى تجعلني أكثر انهماكا لإنهاء لوحتي، وعندما انتهيت لم أصدق أنني أنا من رسمتها، كأنما مسّني جان، فقد كانت اللوحة لفتاة ذات عينين زرقاوين وشفتين حمراوين رفيعتين، جسدها نحيل وطويل، يغطي شعرها الكستنائي المجعد نصف ظهرها، ترتدي رداءً ورديًا طويلا وشفافًا يكشف عن صدرها الأبيض كالثلج كوجهها، تقف وقفة راقصة فالس، رقصة من خطوتين تقدم قدمها اليمنى خطوة عن اليسرى وترفع كفيها أمامها لتلامس كفي من يشاركها الرقصة، ولكنه كان جسدًا شفافًا يظهر بجانب وجهه، نظرته تشتعل شرًا وكرهًا بينما تنظر هي له نظرة عاشقة،

ابتسامته مقيتة تكشف عن أنياب مدببة تشعرني بالغثيان، ثم اكتشفت أن له قرنين، إنه شيطان، كيف رسمت هذا المخلوق؟ كيف خرجت هذه اللوحة من تحت يدي؟

شعرت بالخوف من تلك الحالة التي تسيطر عليّ وأنا أرسم، تفحصت هاتفي المحمول.. كان بلا حياة، وضعته في الشاحن وأجريت اتصالا بصديقي العاقل دائمًا.. "حازم"، فوجدته منفعلا، أخبرني أنني لم أحدثه منذ قرابة الشهر وصبّ عليّ جام غضبه، ولومه وعتابه، وكيف أنني شخص مجنون وغير مسئول، وكيف أترك خطيبتي لتبحث عني في كل مكان، الأمر الذي جعلها تذهب لحازم لأنه صديقنا المشترك الذي تثق به ويأتيان إلى مرسمي معا، فلا يمكن لها أن تأتي إلى المرسم بمفردها فهو يقع في مكان غير مأهول تمامًا، حتى إنه خالٍ من المارة والسيارات، صرخ بوجهي: ظننناك مت.

- غريب، أنا لم أسمع أية طرقات على الباب ولم أشعر بكما على الإطلاق.

- اتصل بسمر فورًا، وحاول أن تصلح معها ما أفسدته بغيابك هذا.

- اسمعني، سمر لا تفهمني أبدًا، لا تفهم طبيعتي، أنا رسام وهذه هي حياتي، لقد تمت خطبتي لسمر لأنها أحبتني، ولكن أصارحك القول أنا لم أحبها، ربما أعجبت بها لبعض الوقت، ربما ظننت أن حبها لي سيجعلها تتفهمني وتتحملني وتتحمل طبيعة حياتي، ولكن المشاكل تتصاعد بيننا كل يوم، ولم تعد تُحتمل، هي تفكر في تفاهات، تفكر أنني كلما غبت كنت مع أخرى، لا مع لوحة أرسمها، لذا فقد جئتُ إلى المرسم بعيدًا عن كل شيء لأعيد التفكير في علاقتنا، ولكن ما حدث لي كان غريبًا، كأنما أصابني مس، أنت تقول إنني غبت شهرًا كاملا وأنا على يقين من أنه أسبوع واحد، والمثير لدهشتي تلك اللوحة التي رسمتها.. ولا أدري كيف رسمتها.

- عزلتك هذه ستصيبك بالجنون.

لم يصدق حازم قصة اللوحة وذلك الشيطان الذي يراقص ملاكا، ولا أدري متى رسمته ولا كيف، وأظنه اقتحم لوحتي عنوة، اتهمني حازم بالجنون وأنهى المكالمة، فاتصلت بأمي لأطمئن عليها، وعلمت أنها مرضت الأيام الماضية ولم أكن معها، بحثت عنّي ولم تستطع الوصول إليّ، وحدثتني عن سمر وأنها أرسلت خاتم الخطبة مع صديق لي، إذن فلتذهب إلى الجحيم، حسنا فعلت كتبت كلمة النهاية بنفسها.

خرجت إلى الشارع أتجول بلا وجهة محددة، ثم عدت في المساء متعبًا من السير، لم أستطع النوم بسهولة رغم شعوري بالإرهاق الشديد، وعندما غفوت لدقائق رأيت ذلك الشيطان وهو يكبلني ويحاول خنقي، فاستيقظت فزعًا وأنا أشعر بيديه الحديدية تلتف حول عنقي، سمعت رنين هاتفي وصورة أمي تنير شاشته، كانت تريد أن تطمئن على حالي، أتاني صوتها حزينًا وخائفًا، أخبرتني أنها رأت كابوسًا، حلّفتها أن ترويه لي ولكنها أبت. طمأنتها أنني بخير وسآتي إليها غدًا فاطمأنت قليلا وأغلقت الخط.

نظرت للساعة.. كانت التاسعة صباحًا، ثم سمعت صوت طرقات على الباب، كان عصام.. لن أقول صديقي فأنا أعتبره منذ فترة ليست بالقصيرة عدوًا لدودًا، فهو شخص مادي انتهازي ومجرد وجوده معي في نفس المكان يوتّرني، وكلامه دومًا يثير غضبي، فتحت له الباب فدخل وجلس وطلب أن يحتسي معي القهوة، فأخبرته أنني كنت نائمًا وسأتجه لأغتسل وأن ركن القهوة هناك يمكنه أن يفعل ما يريد وذهبت، ركن القهوة هو عبارة عن منضدة صغيرة في آخر الحجرة تحمل الشاي والبن والأكواب وموقدًا صغيرًا، اتجهت لحمامي الصغير.. صببت الماء على وجهي ورأسي محاولا التأهب لما يمكن أن يتفوه به هذا الـ عصام، في طريقه لعمل

القهوة رأى اللوحة فسمعت صفيره وهو يقول:

- امرأة باهرة الجمال كيف تصنع هذا؟ من أين تأتيك هذه الأفكار؟

أمسكت بالمنشفة ووضعتها على وجهي:

- تأتيني من شياطين مثلك يزوروني ليلا.

- سامحك الله ولكنني أزورك في الصباح.

- كونك لا تصدق أنك شيطان فهذا لن يجعلك ترتقي لمنزلة البشر.. آت ما عندك.

- سأخبرك فأنا أعلم ضيق حالك، فوالدتك مريضة وأنت مقفر ولوحاتك لا أحد يشتريها..

بدأت أشعر بالغيظ والتوتر وفكرت لو ضممت قبضتي وهشمت أنفه فورًا.. فوضع قدحًا من القهوة أمامي وهو يتابع:

- اهدأ ياصديقي واشرب واسمعني جيدًا، لديّ صديق ثري جدًا هوايته اقتناء التحف واللوحات النادرة، يدفع فيها ملايين الجنيهات، لا أريد منك سوى لوحة واحدة، أي لوحة لرامبرانت، سيدفع فيها مليوني جنيه.. أنت مليون وأنا الآخر، أنت موهوب يمكنك أن تقلد اللوحات بتوقيع رساميها، حتى إنك قد تجعل شكلها يبدو قديمًا و مهترئًا بفعل الزمن، أنت فنان حقيقي.. أتذكر أيام الجامعة ولوحة آكلى البطاطا التي أهديتها لأستاذنا وقلت إن جدك كان يعمل في قصر لأحد الأمراء وأن الأمير كان يقتني الكثير من اللوحات التي حجزت عليها الدولة بعد ثورة يوليو وإن جدك احتفظ بهذه اللوحة التي أعجبته وأخفاها بمنزله وورثها والدك وأنت قررت أن تهديها لأستاذك.. والعجيب أنه صدق كل كلامك لأنها كانت متقنة، أنا أعلم مدى حرفيتك وإتقانك.

- ولكن هذه كانت لعبة.. كنا صغارًا، وكانت للتسلية فحسب.

- ولكنه صدّقها وأبى أن يصدق أنها مزحة.

- نحن لم نرد أن نؤكد أنها مزحة خوفًا من رد فعله معنا.. كان سيفصلنا حتمًا.

- لا، أنت صنعت هذه المزحة حتى تُظهر له مدى موهبتك لأنه كان دائم استفزازك، ولكنه أبى أن يصدق، تمسك بالخدعة، هكذا الإنسان أحيانًا يصدق ما يميل إليه، ما يريده وما يتمناه وما يرضيه، وهذا الثري سيصدق وسيدفع حتى لو لم تكن اللوحة مصنوعة بحرفية.

- ولكنني لن أستطيع أن أفعل هذا الآن.. ابحث عن غيري.

- أنت مخبول، مليون جنيه ترفضها بهذه السهولة؟!

- لأنني يمكن أن أبيع موهبتي.. ولكن لا يمكن أن أبيع شرفي ومبادئي.

هب واقفًا ووضع قدح القهوة على المنضدة بغضب وصرخ بوجهي، أنت تستحق ما أنت فيه، ثم رحل صافقًا الباب خلفه، وليكن.. أنا مجنون.. هذا شأني.

لا أدري كيف مر هذا اليوم وأنا أفكر في عرض عصام وأنظر للوحة، فرأيت وجه عصام يتمثل فوق وجه ذلك الشيطان، غفوت فوق مقعدي فرأيت الشيطان ذاته بوجه عصام يخرج من اللوحة ليتجول في الغرفة، يرتدي حلة حمراء بوشاح طويل مربوط بكتفيه ويغطي ظهره.. يشبه رداء يوسف وهبي في فيلم سفير جهنم، عيناه حمراوان وضحكته تثير الاشمئزاز، صنع لنفسه قدحًا من القهوة وجلس إلى جواري، وراح يحدثني عن أشياء كثيرة لا أذكرها ويضحك ضحكات مستفزة، لم أعره اهتمامًا فغضب وهبَّ من مكانه ثم صفعني فاستيقظت مفزوعًا.

كانت الساعة السادسة مساءً.. بعد الغروب بساعة تقريبًا، فارتديت ملابسي ذاهبًا لأمي كما وعدتها، فوجدت دراجتي البخارية معطلة عند الباب وهي وسيلتي للتنقل بحرية فهذه المنطقة ليس لها خطوط مواصلات، كان بيني وبين المحطة نصف كيلو تقريبًا.. فهذه المنطقة عبارة

عن أراضٍ اشتراها أصحابها ليبنوها ولسبب ما لم ينفذوا جميعًا بعد هذا القرار.. أما أنا فبنيت هذا البيت الصغير؛ حجرة كبيرة ملحق بها حمام ومطبخ وحولها حديقة صغيرة، عندما وصلت المحطة رأيت حافلة أشرت لها دون أن أنظر إن كان بها مكان خالٍ أم لا، لا يهم.. أريد أن أذهب حتى لو وقوفًا، وقفت على الباب وبعد مدة توقفت الحافلة لينزل بعض الركاب، فرأيت فتاة نحيلة وجهها أبيض بياضًا ملفتًا غريبًا وجذابًا، عيناها زرقاوان.. رأيتهما وهي تحدثني بكلمة واحدة: بعد إذنك.

كان صوتها ناعمًا وحزينًا، كنت أقف على الباب فنزلت بظهري لأفسح لها الطريق ثم صعدت ثانية، شعرت بها تخطف قلبي وهي تسير مبتعدة وشعرها الكستنائي المموج يتطاير خلفها وأنا أراقبها متشبثًا بالباب، أردت أن أنزل وألحق بها ولكن الوقت قد فات، ذهبت لأمي واطمأننت على صحتها وقضيت معها الليلة وكانت سعيدة جدًا، وبعد نومها جلست مع إخوتي البنات الأربعة وأبي الذي عاتبني لأني أتركهم ولا أسأل عن أحوالهم وأنا الابن الأكبر ويجب أن أتحمل المسئولية و.....، تحملت كل الكلام وصمتُّ حتى صب غضبه كاملا.. ونام.

التف حولي إخوتي البنات ليخففن عني فابتسمت لهن.. لا شيء يهم، يومها غططت في نوم عميق وفي الصباح لم أتذكر أية أحلام، اتصلت بصديقي حازم أخبرته عن عصام، فقال لي: افعل ما يريح ضميرك فقط.

فاطمأن قلبي أنه ما يزال بيننا ما نتفق عليه وأنني لست مجنونًا بالكامل كما قال.. وأن العالم من حولي هو المقلوب.

قبّلت جبين أمي وودعتها ثم اتجهت للمحطة، كانت الساعة السابعة صباحًا لم تكن الحافلة مزدحمة ولا خالية، ولكني رأيت الفتاة ذاتها، كانت تجلس وتقرأ في كتاب لم أستطع قراءة عنوانه، جلست إلى جوارها وقلت: "صباح الخير".. فنظرت لي مبتسمة..

قلت: قابلتك أمس في حافلة أخرى، أتذكرين؟

نظرت لي ثم عادت للكتاب.

قلت وأنا أعلم أنني كنت جريئًا ومتسرعًا ووقحًا:

- ما رأيك في قدح من القهوة في مرسمي؟

أنزلت الكتاب والتفتت لي: أنت رسام؟

- نعم.

- أنا أحب الرسم كثيرًا.

- حقًا.. هناك لوحة أشعر أنه لابد أن تريها.

ابتسمت مرة أخرى فسحرتني، ابتسامتها لا تنير وجهها فقط بل تنير العالم بأسره، أعدت العرض بإلحاح.

- ما رأيك؟

- في وقت لاحق، لدي عمل الآن.

ثم هبطت من الحافلة في لمح البصر.

في المرسم لم أعرف ماذا أفعل، حاولت أن أقرأ أو أرسم لوحة أخرى، أحرقت عشرات السجائر وتناولت عددًا لا أذكره من فناجين القهوة، وأنا أفكر بها نظرت للوحة، ماذا أسميها.. الفالس، أو الشيطان، ملاك وشيطان، كيف أرسم امرأة ليلا ثم أراها في الصباح؟

شعرت أن في هذه اللوحة لعنة، فالفرشاة تأبى الانصياع لي، ولا ترسم أية أفكار أخرى تجول برأسي.

غفوت لا أدري كيف فرأيت ذلك الشيطان وهو يراقص ملاكي ثم أخرج سيفًا وطعنها في خصرها فاستيقظت مفزوعًا.

في اليوم التالي قابلتها ثانية فقد صرت أخرج لأبحث عنها فقط، جلست إلى جوارها فرحبت بي وسألتني عن اسمي، قلت: طاهر صدقي، رسام غير محترف. وأنتِ؟

- حورية أعمل في مصنع للملابس الجاهزة، أعمل اثنى عشر ساعة يوميًا، أحيانًا يسمح لي المدير بالانصراف مبكرًا ساعة أو اثنتين.

وكأنها كانت تنتظرني لتخرج كل ما بداخلها وتقصه عليّ، حدثتني عن أمها المريضة ووالدها المقعد وأختها الصغيرة ذات العشر سنوات وكيف أنها مسئولة عنهم جميعًا، ثم حدثتني عن مديرها الفظ قالت: شيطان لا يكف عن مضايقتي.

وعندما ألححت في الاستفسار عن تلك المضايقات أخبرتني أنه حاول الاعتداء عليها أكثر من مرة ولا أحد من العمال يدافع عنها أو يفعل شيئًا، فكثير من العاملات يقبلن مقابل حفنة من المال، أما هي فترفض دومًا بينما هو يزداد إصرارًا، في لحظة وهي تسرد لي مأساتها اختفى وجهها الملائكي وبريق عينيها الأزرق البريء، كانت عيناها شديدة الحمرة تقطر شرًا وهي تقول: يومًا ما سأقتله إذا حاول.....

هدأتها ثم طلبت منها ثانية أن تقبل دعوتي لها لترى لوحتي وأقسمت أنني فقط أريدها أن ترى هذه اللوحة لسر ستعرفه بمجرد رؤيتها، فقالت: أنا أثق بك، فعيناك مطمئنتان لا تحملان تلك النظرة الجائعة التي أراها دائمًا في الرجال من حولي، كما أن روحك تبدو طيبة لست ماكرًا فقد شعرت بالراحة وأنا أتحدث معك. ألم تقرأ يومًا عن الأرواح؟

أجبتها بالنفي فمنحتني كتابًا كان بحقيبتها: إذن فلتقرأ هذا. ثم قامت وهي تشير للنافذة لأرى بناءً ضخمًا يقف أمامه عشرات الفتيات وقالت: هذا عملي، غدًا سأخرج في الثالثة عصرًا، سأنتظرك هنا في تمام الثالثة لأرى لوحتك فلا تتأخر، ثم هبطت كما تفعل دائمًا في لمح البصر.

سعدت أنها قبلت دعوتي أخيرًا ورحت أخطط ماذا سأفعل لأجلها، عدت لمرسمي وقد أحضرت أغراض كثيرة، أول مرة أدخل مطبخي الصغير فقد هجرته منذ زمن فأنا كائن يتغذى على السجائر والقهوة، يقضي في رسم

اللوحات أيامًا لا يعرف عددها فما حاجتي أنا للطعام.

في هذه الليلة لم أستطع النوم أبدًا، كنت أفكر فيها وفي زيارتها لي وماذا سأفعل لأجلها، عندما سمعت تغريد الطيور في الحديقة الصغيرة قمت من الفراش ورتبت المرسم ونظفته ثم خرجت للحديقة، هندمتها وأصلحت دراجتي البخارية وقطفت بعض الزهور ووضعتها في مزهرية أثرية عتيقة كنت بادلتها بإحدى اللوحات مع صديق لي، جهزت طاولة عامرة بشرائح اللحم مع البطاطس المحمرة والمكرونة وسلطة خضراء وعصير البرتقال، نظرت للساعة كانت الثانية والنصف، ركبت دراجتي البخارية وأسرعت لألحق بها في الموعد، عندما وصلت وجدتها واقفة بجوار البوابة تنتظرني، كانت أمتع لحظات حياتي عندما ركبت هذه الحسناء خلفي ولفّت ذراعيها حول خصري وتشبثت بملابسي، وعندما وصلنا للمرسم أعجبتها حديقتي الصغيرة وقالت مبهورة: كيف صنعت هذا المكان البسيط والرائع.. وكيف وجدته وسط مكان خرب كهذا؟ والكثير من التساؤلات راحت تطرحها عليّ، كيف أعيش هنا بمفردي ولا توجد أية مظاهر للحياة من حولي، أين أهلي؟ وهل تزوجت من قبل و.....

أخبرتها كل شيء عنّي أثناء تناولنا للطعام، كانت تضحك وتئن وتصمت. أبدت إعجابًا مبالغًا فيه بطعامي وأعتقد أنها جاملتني، ثم نظرت في عيني وقالت: أنت لم تعرف الكذب في حياتك قط.

تعجبت لثقتها ولم أجب فسألتني: هل قرأت الكتاب؟

فارتبكت وشعرت بالخجل منها: الحقيقة لا، نسيت أمره تمامًا.

- أرجو أن تقرأه سيفيدك كثيرًا في فهم هذه الحياة الصعبة وفهم بعض النفوس.

وعدتها أن أفعل في أقرب فرصة، ثم جاءت اللحظة الحاسمة وكشفت الغطاء عن لوحتي، تسمرت عيناها على اللوحة مشدوهة، صمتت برهة

ثم نظرت لي: إنها أنا.. متى رسمتها؟

- أنهيتها قبل أن أراكِ بيومين تقريبًا.

- كيف رسمتني قبل أن تراني؟

- لا أدري، ربما رأيتك بأحلامي.

كنت أمزح ولكن نظرتها كانت جادة جدًا وهي تقول:

- نعم ربما التقينا في عالم آخر. فضَحِكْتُ..

- أنا لا أمزح، لو أنك قرأت الكتاب لفهمت ما أقصد.

- حسنًا، سأقرأه، ولكن فسري لي سبب وجود هذا الشيطان، أنا لا أتذكر كيف رسمته وكيف جعلته يبدو شفافًا هكذا، لقد صرت أراه في كل أحلامي.

- لا أدري، ربما كان هذا الشيطان بداخلك.

- ألم تقولي إنني شخص طيب وشفاف كيف أصبح الشيطان بداخلي الآن؟

- بداخل كل منَّا شيطان كامن قد يثور في أي وقت ويخرج من مكمنه ويرتكب الفظائع، ربما أنت تعلم كيف تروضه وتجعله كامنًا دائمًا فلم يجد وسيلة للظهور إلا في لوحاتك.

- كانت أسطوانة يوهان شتراوس خلفية جلستنا وعندما بدأت معزوفة صوت الربيع تتسلل لأذاننا مددت يدي لها فوضعت كفها في كفي فجذبتها نحوي ووضعت يدي اليمنى حول خصرها ويدها اليسرى على كتفي واليمنى تحتضنها كفي وبدأنا رقصتنا خطوة للأمام وخطوة للخلف. شعرت أننا نرقص بين السحاب.. والطيور هي التي تعزف لنا هذه المعزوفة في السماء، ثم فجأة انسحبت من بين يدي وأمسكت بحقيبتها وركضت في لمح البصر.

لم أخرج خلفها ولم أبحث عنها، كنت واثقًا في الصدفة التي يمكن أن تجمعنا ثانية.. ولكني لم أرها قط بعد هذه اللحظة، لم أفهم لماذا هربت،

ربما رأت في عيني ذلك الشيطان الكامن بداخلي؟

في اليوم التالي ذهبت للبحث عنها داخل كل الحافلات التي قابلتها ووصلت لعملها وفكرت في السؤال عنها.. ولكني ترددت، ظللت أبحث ذهابًا وإيابًا، انتظرتها في المحطات شهرًا كاملا ولم أجدها، لم يعد لها أي أثر، اتصلت بصديقي حازم.. أخبرته عن تلك الفتاة وارتباطها باللوحة، كرر عليَّ كلماته بأن عزلتي تصور لي أشياء غير موجودة وأنني حتمًا في النهاية سأموت مجنونًا.

أنهيت المكالمة معه، ثم استلقيت على الفراش، قلت ربما كانت وهمًا خلقته من خيالي، ربما خرجت لي من لوحة رسمتها، وغفوت وكأنني ارتحت لهذه النتيجة التي توصلت إليها فرأيتها ملقاة على الأرض وذلك الشيطان يغتصبها بينما كانت هي مستسلمة تمامًا، ثم أخرجت من أسفل ظهرها خنجرًا وطعنته به أكثر من مرة، راحت تطعنه حتى وقع على ظهره ليحدث صوتًا يشبه خوار الثور عند نحره ثم نهضت من مكانها وألقت بنفسها من النافذة.

قمت مفزوعا، وارتديت ملابسي وقررت ألا أنام هذه الليلة هنا.. سأذهب لبيت أمي، ذهبت للمحطة على أمل أن ألقاها هذه المرة، وعلى المحطة وقفت أنتظر.. كان يقف بجواري رجل طاعن في السن يمسك بصحيفة في يده، نظرت داخلها بدافع فضول وهالني ما رأيت، كانت صورتها الملائكية وابتسامتها الساحرة بجوار صورة أخرى لرجل فظ ذي شارب كث، ووجه ممتلئ كخنزير بري يصلح كثيرًا لوجه شيطان، أنا أشعر أنه يشبه ذلك الشيطان بلوحتي، نظرت للعنوان.. "العثور على جثتين داخل مصنع ملابس إحداهما جثة مدير المصنع".. من قتل من؟

هل نفذت وعيدها له بأن تقتله إن فعلها ثانية؟

وهي ماذا عنها.. كيف قُتلت إذن؟

أتكون قد انتحرت؟ هل صارت مناماتي تتحقق أيضًا؟
استأذنت الرجل أن يمنحني هذه الصفحة ولم يكن يحمل الجريدة كاملة يبدو أنه كان يشتري فيها شيئًا ما، عدلت عن فكرة ذهابي للبيت وعدت للمرسم أبحث عن الكتاب الذي أهدته لي، وكدت أسقط أرضًا وأنا أحاول أن أتذكر أي شيطان تلبسني وأنا أرسم هذه اللوحة اللعينة.
كنت أشعر برغبة عارمة في البكاء، نظرت للوحة الملعونة، وقلبت الحجرة رأسًا على عقب ولم أجد الكتاب أبدًا، فكرت أن أمزق تلك اللوحة اللعينة ولكنني عدلت عن الفكرة فهي الإثبات الوحيد لدخول هذه الفتاة يومًا ما حياتي، فحتى الكتاب لم يعد له وجود، نظرت للوحة مرة أخرى، عندها لمحت صفحة الجريدة الملقاة على المنضدة ولاحظت شيئًا لم ألحظه من قبل، شيئًا جعلني أنهار تمامًا، فقد كان تاريخ هذه الجريدة قبل عام من الآن.

"لقد مضيت طوال حياتي مجدفة بعكس تيار النهر بجهد وحشي، وأنا الآن متعبة، أريد أن ألتف نصف دورة وأترك التيار يحملني برفق إلى البحر".

إيزابيل الليندي

لندن

لم يكن سوى حلمًا يطارد نومي دائمًا كبقية أحلامي الغامضة ولكنه أكثر غموضا وروعة؛ أرض خضراء تبدو كحديقة لفندق على الجانبين، أزهار بألوان متعددة وبينما أنا أعزف على البيانو بين الخضرة والأشجار والطيور حولي وكأنها تغني معي يظهر رجل نحيف طويل يرتدي حلة سوداء أنيقة تزيد قامته طولا وجاذبية، ثم يجذب يدي عنوة ويراقصني فأقترب من وجهه وأفسر ملامحه لأجده وسيما، نظرته حنونة رائعة، تؤسرني عيناه العسليتان ويخفق قلبي بعنف وأنا بين يديه..

- "ريهام.. الفطور، هيا سيبرد الشاي".

هذا صوت جدتي.. أعيش معها منذ طفولتي بعد وفاة أبي وأمي، يا الله الآن استيقظت.. ضاع الحلم الجميل.

جلست جدتي معي وهي تقص بعض الحكايات عن الأقارب والصديقات وعن صديقتها الوحيدة التي تركتها ابنتها وتحتاج إلى رفيقة معها في رحلة علاجها بلندن..

انتفضت من مقعدي: ماذا.. لندن؟!

- نعم.. مسكينة معها النقود ولكن لا أحد تستأمنه على نفسها ليسافر معها.

بلا تردد هتفت: أيمكنها أن تستأمنني؟

***

اليوم تطأ أقدامي مدينة الغيوم، مدينة أحلامي.. لندن، تلك المدينة التي حفَّها الغموض ورأيتها في يقظتي ومنامي، الآن أنا في مطار "هيثرو"

اصطحبتُ السيدة العجوز صديقة جدتي وتركت جدتي وحيدة، لا يهم ستجد من يخدمها بمنزلها، على أي حال هي سعدت كثيرًا بتطوعي لخدمة صديقتها، سرنا معًا إلى الفندق، لازلت لا أصدق أنني هنا أتنسم رائحة المطر والأشجار بلندن.

وصلنا إلى الفندق الذي حجزنا به منذ كنا في القاهرة بكل سهولة ويسر فهو على بعد خطوات من المطار وكان رائعًا بخدمات ترفيهية لم تغفل شيئًا، بالطبع كنت أعلم أن السيدة "درية" صديقة جدتي تمتلك الكثير من المال والثروة، ولكنني تفاجأت بحجم هذه الثروة بالفعل بمجرد دخولي إلى الفندق، وكرمها ونحن نتسوق معًا في المساء يوم وصولنا، كانت ذاهبة لإجراء عملية جراحية بالقلب فهي أجرت العديد من الجراحات قبل ذلك بنفس المستشفى، ولكنها هذه المرة كانت تشعر أنها تودع كل شيء، كانت تريد أن تنهل من متع الحياة قدر الإمكان، تجولنا معًا بين المحلات من "بوند ستريت" إلى "رويال أوركيد"، كانت محلات فاخرة لبيع الأحذية والحقائب والثياب وحتى الشيكولا، ولكني صدمت من الأسعار هنا ورغم ذلك أصرت السيدة درية أن أشتري ثوبًا جديدًا مطرزًا فاخترت ثوبًا رائعًا شعرت فيه أنني أميرة.

قبل عرضها هذا لم أرها مع جدتي سوى مرتين تقريبًا، لكنني كنت أسمع عن كرمها وقلبها الطيب المحب للخير دومًا من جدتي، كانت تحكي لي قصة حبها لزوجها الذي عشقته وتزوجته رغم رفض أهلها، فقد كان طبيبًا فقيرًا ولكنه كان مجتهدًا، سافر ليكمل دراسته بالخارج على حساب الدولة، وسافرت معه هي إلى فرنسا حيث يكمل دراسته وتركت دراستها بمصر وعملت على راحته، كان رجلا مكافحًا عصاميًا، اشتهر ولمع نجمه في فرنسا وإنجلترا وسويسرا أيضًا، أنجبت منه ابنتها الوحيدة "سارة" التي تزوجت وسافرت مع زوجها إلى أمريكا، كررت قصتها مع أهلها وتركتها

بعد وفاة والدها بعامين، الذي توفي وفاة غامضة حيث كان عائدًا من مؤتمر علمي في سويسرا يحضره أشهر الأطباء والعلماء في العالم، وكانت مدته أربعة أيام، وصل لمنزله وهو يشتاق لزوجته وحبيبته، قبّل وجهها بنهم ثم شعر بضيق واختناق في صدره، خلعت عنه سترته، حاول أن يفك ربطة عنقه وهو يتمدد على الأريكة لكنه شعر بأن أطرافه ثقيلة جدًا لا يستطيع تحريكها، حاولت هي إنعاش صدره وتدليكه وخلعت عنه ربطه عنقه وفتحت أزرار القميص، حاولت بكل ما تعلمه عن الإسعافات الأولية أن تنقذه حتى رأت أطرافه تتراخي بشكل أرعبها، اتصلت بأحد أصدقائه وكان طبيبًا.. الذي أتى مسرعًا ليخبرها أنه توفى، علمت بعد ذلك أنه توفي إثر هبوط في الدورة الدموية، ظلت على يقين أنه قتل.. ولكن لا شيء في معدته ولا في دمه يؤكد ذلك وقتها، عادت هي وابنتها إلى مصر لتنهل مما تركه لها من مال وخير وسمعة طيبة، ولكن ابنتها لم ترضَ بالعيش في مصر فقد اعتادت الحياة بفرنسا وكان صعبًا عليها أن تعتاد الحياة بمصر، ارتبطت بشاب عربي كان يزور مصر وتزوجته رغم رفض أمها.. وتركتها وسافرت معه لأمريكا حيث يعمل.

انتقلنا معًا للإقامة بالمستشفى التي ستجرى بها العملية، وبدأت التحضير وتحدد موعد العملية بعد يومين، كنت أجلس معها.. أهتم بها وبوجباتها وأدويتها رغم وجود الممرضات اللاتي يعتنين بها كثيرًا، وفي المساء كنت أنظر للفراغ والسماء من حجرتي كمرافقة لها، المكان هادئ جدًا، وكانت هناك بناية أعتقد أنها تابعة للمستشفى أيضًا ولكن ربما كان قسمًا آخر.. لا أدري، ولكنني رأيت شابًا وسيمًا جذابًا خطفتني لمعة عينيه وجذبني إليه ذلك الشبه بينه وبين زائر أحلامي، كان يسير في ممر المستشفى ثم ينظر من الشرفة في عيني مباشرة نظرة ثاقبة وحنونة تعجبت لها، أثار اهتمامي بشدة وقررت أن أعرف ما طبيعة هذا القسم.. وما هو

مرض هذا الشاب.. وما هي حالته بالضبط. جاء موعد عملية السيدة درية، يومها نادتني وأخبرتني أنها اتصلت بالمحامي وجعلت لي نصيبًا في وصيتها، شكرتها وقلت لها إنه لا داعي لكل هذا فلم أقم سوى بواجبي، قبّلتني واحتضنتني بشدة وكأنها تودعني.

يومها لم أتحمل الوجود في الممر في انتظار انتهاء العملية، هبطت إلى الحديقة فرأيته.. كان يرتدي ملابس بيضاء فضفاضة، جاء يجلس إلى جواري دون حديث.. فقط ابتسامة هادئة على وجهه وتلك النظرة الغريبة، ثم وقف وهو ينظر لي وكأنه يقول اتبعيني، لا أدري لماذا قمت من مكاني وسرت خلفه، كان يدخل في ممرات داخل المستشفى لم أرها من قبل حتى إنني أظن أنه لن يمكنني العودة بمفردي من حيث أتيت، وصل إلى غرفة مغلقة مكتوب عليها عبارة بالإنجليزية.. لم أفسر جيدًا المعنى، ولكن ما هالني أنه اخترق الباب بجسده.. لم يفتحه، بل مر من الباب كالهواء، فتحت الباب بيدي لم يفتح، حاولت معه بشدة حتى فتح لأجد مجموعة أدراج عليها أرقام وهو واقف يمسك بأحد الأدراج وينظر لي، إنها المشرحة.. إنه ميت يحاول أن يدلني على جثته، وماذا أفعل أنا بجثته؟ وبماذا سأفيده؟ تركته وركضت أحاول العودة، وخيل إلي أنني تهت في ممرات ودهاليز المستشفى، ارتبكت.. كدت أبكي حتى رأيت السيدة درية تقف أمامي: أين كنتِ يا ريهام؟ لماذا تركتني بمفردي؟

- أبدًا.. أنا لم أتركك.

ارتبكت بشدة وخرجت الكلمات مني بشكل متقطع:

- ولكن هل مر الكثير من الوقت؟ كيف تقفين أمامي هكذا؟

ثم رأيت الجواب بعيني، فقد كانت تسير وهي تخترق الجدار بجسدها، أو بروحها..

- هل ماتت.. أم أن روحها طليقة الآن؟

أخيرًا خرجت للحديقة، رأيت أناسًا كثيرين يحملون ذات النظرة ويسيرون بهدوء بنفس طريقة سير ذلك الشاب، تركت هذا كله واتجهت لغرفة السيدة درية وأنا أدعو الله أن تكون بخير، وعندما وصلت وجدت ابنتها، لم أكن قد رأيتها ولكنني عرفتها من صورها التى رأيتها قبلا، كانت تقف حزينة أمام الباب تهتهل، تعجبت وسألتها كيف تركتها كل هذا الوقت وجاءت الآن؟

لم تجب ونظرت لي نظرة تعالٍ، لم أهتم لأمرها، انتظرت الطبيب الذي أتى بخبر حزين.. السيدة درية ماتت، جلست أفكر كيف سأعود بجثتها أم أعود بجثتين، هذا الشاب يرجوني أن أعود به لأرض الوطن..

- يا ريهام يا كسولة، ها قد أتيت بالفطور إلى فراشك، هيا انهضي لأروي لكِ ماذا فعلت صديقتي.

هذا صوت جدتي من أين يأتي.. أكل هذا حلم؟ حلم أم كابوس؟

الكابوس هو ألا يكون كل هذا حقيقة، لا سفر لا مال لا شيء.. أي شيء؟

أحاول أن أفتح عيوني لا أستطيع، شيء ما يثقلها بشدة، شيء ما يكبل جسدي، شيء ما يجذبني للمرور في ممرات المستشفى، لا أدري هل أبكي على السيدة درية أم أسعد بما تركته لي، خطوات سريعة جدًا أقرب إلى الطيران حتى دخلت إحدى الغرف، تبدو غرفة عمليات، الأطباء منهمكون في العمل تمامًا، ما هذا.. هذه المرة أنا أخترق الباب، نظرت للجسد الملقى على الفراش وهالني ما رأيت.. كان جسدي أنا، كان الجهاز يحدث صفيرًا مزعجًا، و الأطباء يحاولون معي بالصدمات الكهربائية وجسدي ينتفض بلا حياة، وفجأة انتفضت أنا وعاد الجهاز يحدث صفيرًا منتظمًا، حاولت الخروج للعودة إلى حجرة السيدة درية.. لم أستطع وكأن قدمي مكبلان بالفراش.

وبدأت أفتح عيوني أخيرًا، وجدت الممرضات من حولي: أين أنا؟! لا أذكر

شيئا على الإطلاق، كل ما أذكره أن السيدة درية توفيت.. هل هذا صحيح؟
تخبرني إحدى الممرضات أنها بخير وقد أجرت العملية الجراحية بسلام.
سألتها: إذن أين أنا؟ ولماذا أنا راقدة هنا على الفراش بكل هذا الألم والوهن؟ فأخبرتني أنه أثناء إجراء العملية ذهبت للسير خارج المستشفى فصدمتني سيارة مسرعة، ولحسن حظي أن الحادث كان بجوار المستشفى وأن إحدى السيدات تعرفت عليّ لأنني أقيم هنا منذ فترة فاهتموا بأمري عندما علموا أنني رفيقة السيدة درية.
إصاباتي بسيطة.. فقط كان هناك كسر في ساقي اليُسرى، فأمسكت بالعصا وحاولت النهوض، ساعدتني الممرضة واتجهت بي إلى حجرة السيدة درية، لا بأس من بعض الألم أو الكسر، المهم أن السيدة درية بخير وسنستمتع معًا ببعض الوقت هنا حتى نتماثل للشفاء، وربما نقضي وقتا آخر للاستجمام.
على باب الغرفة لمحت في نهاية الممر شابًا كان يستند إلى الحائط ومعه شخصان يساعدانه، إنه هو ذات الشخص، ذهلت.. أهذا حلم آخر أم كابوس.. أم هو الواقع بحق؟!
اتجهت نحوه مع تزمر الممرضة التي أخبرتني بأن الغرفة ليست من هذا الطريق، لم أجبها وأكملت السير وهي تمسك بي محاولة إثنائي حتى استسلمتْ وسارت معي، وقفت أمامه في دهشة.. كان هو ذلك الرجل الوسيم الذي كان يرقص معي، رحبت به بالإنجليزية، فسخر أحد المساعدين: وهذه معجبة أخرى بعزفك أيها الفنان.
- أأنت عازف؟
- نعم.
- أعجبتني كثيرًا ألحانك.
حقًا.. هل استمعتِ إليها؟

- نعم.. استمعت إليها كحلم جميل.
- ربما التقينا من قبل؟
- نعم.
- أين؟
- لا أذكر.
- فلنلتقي إذن من جديد وأعزف لكِ لحنًا آخر.
- هل أنتَ بخير؟
- سأكون بخير؟ وأنتِ؟
وأنا أيضا سأكون بخير.

***

في حديقة الفندق الذي نقيم به أنا والسيدة درية في فترة النقاهة.. وقبل أن نغادر هذه المدينة الجميلة، مدينة أحلامي، أقامت حفلا تشكر فيه كل من ساعدها في هذه الفترة، ارتديت ذلك الرداء المطرز الذي اشترته لي وبدوت فيه كأميرة الحفل، كانت قد دعت فرقة موسيقية شهيرة وعازف بيانو مصري شهير مقيم هنا منذ سنوات، كان يجري عملية جراحية دقيقة في يده وتماثل للشفاء وعاد يبدع من جديد، كان هذا حلمًا خياليًا بالنسبة له، فبسبب حقد البعض عليه وغيرتهم منه تعرض لحادث مدبَّر، ففي أثناء عودته من إحدى الحفلات اجتمع ثلاثة أشخاص وأوسعوه ضربًا وركزوا على كف يده ليقضوا على إبداعه، وبالفعل تملكه اليأس فترة وحاول الانتحار ولكن تم إنقاذه، والآن عاد من جديد يتمسك بحلمه ويبدع وقد شفيت يده تمامًا وبدأت ترقص فوق الأصابع العاجية، وتعزف في استمتاع وأنا خلفه أصفق بحرارة وانبهار، فقام وبدأ بتحية الجميع، ثم أشار للفرقة لعزف لحن آخر وانحنى أمامي يمسك بيدي ويهمس في أذني:
- ما رأيك في رقصة وداع؟!

أومأت بالإيجاب واستسلمت للرقص بين يديه، لقد رأيت هذا المشهد من قبل، رأيته في أحلامي..

- إذا متّ الآن سأكون سعيدة جدًا.

همست بها.. فرأيت الخوف في عينيه.

قلت: لا تقل رقصة وداع ربما كانت رقصة بداية.

فابتسم وحلّقنا معًا برقصتنا، لم أكن أرى بشرًا حولنا، كنت فقط أرى الزهور.. والطيور.. والسماء الغائمة.

"مع الزمن يتحول الألم إلى حزن، ويتحول الحزن إلى صمت، ويتحول الصمت إلى وحدة ضخمة وشاسعة كالمحيطات المظلمة".

إليف شافاق

آلام الصمت

ليل الشتاء الطويل يزيد كآبتي، يثير ذاكرتي، يفرغ كل ما فيها من آلام، وكأنني أتقيأ دمًا كل مساء وأنا أجتر أحزاني، الهدوء والصمت يغلفان كل شيء ويستفزاني بشدة، أشعر بشيء ما ينخر في قدمي، وكأنهما عروق خشبية تمتد إليهما المناشير الكهربائية لتنحرهما نحرًا، صوت صفير يخترق أذني مع صوت همهمات لا أدري إن كانت حقيقة أم وهمًا اختلقه طول الصمت.

أرقد على الفراش أتوسل لمسكناتي أن ترحمني قليلا من عذاباتي، أتوسل لكل العقاقير التي إلى جواري على المنضدة الصغيرة أن تفعل شيئًا هذه المرة وتدخلني في غيبوبة مؤقتة، أو أبدية، لِمَ لا؟

لن أعترض فهذه الحياة مثقلة بالهموم والأوجاع.. أتعبتني كثيرًا، أرغب بشدة في الصعود إلى السماء، أرغب في هذه الرحلة العطرة، ستكون الراحة الأبدية، والسبيل لمواجهة المجهول الذي نخشاه دوما.. "الموت"، فليأت إذن.. سئمت الانتظار، سئمت الخوف منه، ومن تصوره ومما يمكن أن أقابله، ترى كيف ستنزع روحي؟ هل سأتألم كثيرًا عندها؟ كيف سأصعد وأهبط ثانية؟ كيف سيكون قبري؟ وكيف سأقابل الملكين؟

فليأت ملك الموت الآن لينتهي الأمر فالانتظار مقيت، وصدى الصمت موحش، صوت الأمطار وزخاتها ترتطم بنافذتي، ويخترق حواسي، أتنسم رائحة المطر من وراء النافذة، في المطر حياة وفي رائحته شفاء وأمل، سأشتاق المطر، الوحدة قاسية جدًا عند المطر، أحتاج لكف حانية تربت على كتفي لتطمئنني عندما يشتد المطر.. أحتاج لذراعين دافئين يضماني

بشدة كلما اهتزت نافذتي بصعقات الرعد، واخترقتها ومضات البرق الخاطفة وأنا وحيدة ليلي، لا يؤنسني سوى كتاب ملقى إلى جواري ونظارتي ومصباح صغير، وبعض العقاقير التي فقدت تأثيرها، لم أعد أملك سوى جسدٍ متهالك لا يقوى حتى على فتح النافذة واستنشاق رائحة المطر وإشباع أنفاسي وروحي منها.

الصمت رتيب جدًا لولا مواء قطة في آخر الليل ضلت الطريق تبحث عن أمها. وبكاء وليد يوقظ أمه في جوف الليل على صراخه فتفزع بأفكار شتى تحتل رأسها، هل آذته حشرة؟ أم أصابه مرض؟ وصوت سعال أحدهم غافل زوجته في هذا الليلْ البارد ليملأ صدره خلسة بالدخان، رائحة الدخان تتسلل لأنفي مختلطة برائحة الثرى المبلل بالمطر، الجميع نيام أكاد أتخيل تفاصيل الشوارع الخالية الآن المغطاه بالمياه، الشارع خالٍ تمامًا إلا من كلاب تعوي وكأنما أصابها سعار، وأحدهم يسير في منتصف الطريق يترنح من التعب ومن أحماله، حقائب وهدايا.. ربما كان عائدًا من سفر، وصوت يتسلل ليخترق الصمت من بعيد، أنصت إليه لأفسره.. صوت الشيخ محمد صديق المنشاوي، يبدو أنه صوت إذاعة القرآن الكريم أدارها أحدهم وتركها لتؤنس وحدته حتى ينام، ليس مُهمًّا أن يستمع ويفسر ما يُقرأ، المهم أن يكون هناك صوت يشعره بالأمان.. فإذاعة القرآن تشبه ضمة الأم والجدة الحنون، تذكرنا أصوات القراء بمواقف دافئة فتمنحنا الصحبة والراحة والأمان الذي ننشده في وحدتنا وحياتنا الباردة، يبتعد صوت الشيخ فأمد يدي إلى المذياع وأبحث عنه حتى يأتيني صوته المثير للشجن فتختلط الصور والأصوات برأسي، صوت أمي وهي تناديني في الصباح لأتناول الفطور سريعًا وأركض لمدرستي، صوت القطار وفرحتي بوصوله بعد انتظاري الطويل له على المحطة للذهاب إلى الجامعة، صوت نحيب أمي على جدتي، وصوت أبي وهو

يردد الآيات بصوته العذب الذي يباري فيه المنشاوي ويتفوق عليه، صور معلقة على الجدران الصامتة، ذكريات شتى تتداخل ببعضها البعض، صوت ضحكات وبكاء في آن واحد، البيت القديم وأغطية المقاعد عند السفر، ملابس سوداء وأنوار زاهية.

الصداع يكاد يكسر رأسي، والثقل يزداد في قدمي، الآلام تتزايد، ربما حانت اللحظة، أرى الآن المشاهد كلها بوضوح، أمي تجلس إلى جواري تحيك شالا من الصوف قرمزي اللون، بينما أبي منشغل بتلاوة القرآن يمسك بالمصحف ولا يلتفت لمن حوله، لا يزال صوته رائعًا، بل ازداد روعة وطلاقة، وجدي يسامر جدتي وهو يقرأ الجريدة بينما هي تجلس أمام منضدة صغيرة، تمسك بكنكة القهوة وترفعها بعيدًا عن لهب الموقد الصغير، ثم تصبها برفق في قدحين صغيرين تمنح جدي أحدهما بابتسامة هادئة ثم ترتشف من الآخر ببطء. طفلتي الرضيعة التي ماتت ولم أنجب غيرها تحملها أمي بين يديها، تركت الشال على قدميها وراحت تداعبها في رفق، طفلتي التي اشتقت لها كثيرًا واشتقت لأبيها الذي تركني وهام على وجهه عندما علم بوفاتها، الأضواء بالخارج تنطفئ بالكامل.. لم يعد هناك سوى بصيص من النور يتسلل على استحياء، لم أعد أشعر بالبرودة، الألم ينسحب في هدوء، لم أعد أسمع صوت الرعد الذي كان يجتاح أذني ويزيدني فزعًا، أشعر بالاختناق، فقدت الشعور بقدمي تمامًا، بل فقدت التحكم في جسدي بالكامل، فقط شفاهي تتمتم بعبارات مبهمة لا أدركها ولا أسيطر عليها، ربما كنت أردد تلك الآيات وراء أبي، صوت أبي يزداد وضوحًا، وصورة أبي وأمي تبزغ أكثر وسط الظلام، يبدو لي أن الظلام بدأ ينقشع، وتلاشي تمامًا صوت المطر، أشعر بأنني طائر بجناحين خفّاقين، تحررت من كل شيء، من آلامي وأحزاني ومرضي.. وجسدي أيضًا..!!

"أنا أحلم بالغائبين، بأولئك الذين ابتعدوا كثيراً حتى صارت ظلالهم أوسع حضنًا منهم وأقرب".

رفاة السيف

شجرة الياسمين

شجرة الياسمين التي زرعها جيراني في شرفة منزلهم الملاصقة لشرفتي أثارت ذكرياتي القديمة، فقد كان عطره المفضل، عطر ملابسه وروحه، وأمتعته ومنزله ودرجات سلم منزله الخشبي العتيق.

أفكر في قسوة القدر حين يعوضنا بأشخاص حينما نفقد أشخاصًا آخرين وبعد أن يمنحونا بتفاصيلهم البسيطة سعادة جمَّة يحرمنا إياهم!

ليس اعتراضًا أن نتأمل فقط ونحن نقول لِمَ؟!

ربما لأن الحياة حكمتها الفراق، عنوانها الرئيسي الذي يتصدر صفحاتها دائمًا، تلك الزهور البيضاء النقية الرقيقة حين نحملها بين يدينا نرى فيها صور الذكريات ووجوه الأحباء ودفء من رحلوا.

ارتديت ملابسي وذهبت لأمر بشارع له ذكرى بالقلب، أمر من بيته القديم، علّني أشبع شغف الحنين، وأروي ظمأ القلب الحزين لرؤية الغائبين، فمررت بجوار المسجد الذي كان دومًا يؤم فيه المصلين للصلاة، وتصادف أنه وقت خروج المصلين بعد أداء صلاة العصر، وكأنني رأيته يخرج من بين الجموع بجلبابه ناصع البياض، يلقي التحية ويمد يده بالسلام، وكأنما ابتسم لي وتلاقت أعيننا للحظات ثم اختفى في الزحام، وهبَّت نسمات تحمل عطره، تخللت ثوبي وحقيبتي وحجابي، واخترقت أنفي للحظات ثم اختفت مع الهواء الذي مر، فتقدمت بخطواتي أكمل المسير وأنا أقتفي بأنفي أثر العطر.

لم يكن يكفيني المرور بجوار المنزل فصعدت درجات سلمه ركضًا حتى وصلت للطابق الأخير، شقتان متقابلتان وسطح المنزل، هكذا كانت تتكون

جنته الصغيرة، كل شيء فيها صنعه بيديه، باب من الخشب المعشّق بين زواياه تنمو شجرة لبلاب تغطي السلم بأكمله حتى تصل لخارجه، هالني ما حدث لها.. ذبلت أوراقها وجفت وتحول لونها للاصفرار، حبست دموعي ودفعت الباب.. لم يكن مغلقًا، لم يعد هناك أحد ليغلقه، وسرت في جسدي رعشة عندما تسللت لأنفي رائحة الياسمين من بين خشب الباب.. أو خشب السلم.. أو أبواب منزله المغلقة، وقفت في الممر الفاصل بين الشقتين أتذكر تلك اللحظات السعيدة وهو يلاعبني بالكرة في الممر، صوت طرقات يديه على باب منزلنا في الصباح، همسه بالتحية ودفء يديه في السلام، العيد الذي لم يكن عيدًا إلا بالـ "عيدية" الورقية المعطرة بالياسمين الذي كان يملأ به جيب جلبابه فوق صدره.

صعدت درجات أخرى لأجدني قُبالة شجرة الياسمين العظيمة والأرجوحة القديمة بجوارها، هبت ريح قوية فسقطت أوراق الشجرة الذابلة، تذكرت آخر كلماته معي..

- ثماني سنوات يا عمي لم تمنحني العيدية.

- صرتِ عروسًا لا تحتاج عيدية.

- وليكن.. هل سأكبر عليك؟

- إذن تعالي وخذي عديتك وامنحيني القبلات التي حرمت منها في ثمان سنوات.

- فقط هذا طلبك؟ سأمنحك ثمان قبلات.

- أنتِ بخيلة جدًا، ولكن لا بأس، فقط تعالي لأرى كيف صارت طفلتي الصغيرة؟

- صارت حزينة جدًا بدونك يا عمي، لا عيد يأتيني في غيابك ولا يطرق بابنا زائر.

- عندما أشفى سأطرق بابك وأنتِ عروس في بيت زوجك.

الأقدار لا تمهلنا الكثير، لا تمنحنا الكثير من اللحظات حتى نعوض ما نفقد، أو نودع من نحب، الموت لا ينتظر ترتيب أفكارنا وظروفنا، هو يأتي بغتة فيغتال سعادتنا وخططنا وأحلامنا.

أنتظر الغفران على حركتي الوئيدة، تؤلمني روحي لأنني لم أملأ عيوني بملامحه بما يكفي لري ظمأ السنوات التالية. ولكني لازلت أحتفظ بصدى صوته في أذني وهو يقطف زهور الياسمين ويضعها بين يدي، ثم يدفع الأرجوحة، وعندما أصرخ يضحك ويقول: معك عمك كيف تخافين؟

تركت المنزل وهرعت لشرفتي، ملأت أنفاسي من عطر الياسمين الحي، ثم غفوت فرأيته يقطف زهور الياسمين في حديقة كبيرة وكأنها جزيرة في عرض البحر وينثرها بعيدًا، فألتقط بعضها وأنا أقف على الشاطئ وألوح له، وعندما أفقت كانت زهور الياسمين تغفو على وسادتي.

"الثورة وحدها هي المؤهلة لاستقطاب الموت، الثورة وحدها هي التي توجه الموت، وتستخدمه لتشق سبلا للحياة".

غسان كنفاني

خطاب سبارتاكوس.. ربما ليس الأخير

إلى ابني الذي سيولد وأنا هنا سجين مكبل بالأصفاد..

في تلك اللحظات المعتمة التي أختنق فيها سترى عيناك النور لأول مرة، ولن أرى وجهك ولو لمرة. فأرجوك ألا تصدق ما سيقولونه عن أبيك بعد رحيله، سيقولون خان وطنه، سيصورون أبيك شيطانًا جامحًا، لا تصدق أبدًا واقرأ جيدًا ما أقول..

فأنا يابني ربما كنت أحمق حالما، ولكني لست بخائن. ربما كنت جاهلا وساذجًا ولكني لست شيطانًا. ولأنهم لن يتركوا لي عمري القصير الباقي لأرعاك وأشد من أذرك وأراك تكبر ويكبر شأنك، لذا فسأكتب لك الوصايا لتحيا ولا تكرر أخطاء أسلافك..

بداية.. لا تحلم في وطن مدنس، وإن حلمت فلا تصدق حلمك ولا تحاول أن تخطه بيديك على الواقع، دعه يتبخر مع ضوء النهار ويمضي في طي النسيان.

أما الثانية.. فإن حدَّثك رفاقك يومًا عن ثورة قل لا أحب رائحة الدماء، سيخبرونك بأنها سلمية شريفة، تقوم من أجل المساكين والعراة، من أجل الحق والعدل والمساواة. أخبرهم أن أولئك المطحونين في العراء أول من أعلنوا الاستغناء، وأنهم أول القاتلين، وأول النابشين لقبوركم بعدما ترحلون. قل لهم لا تحلموا، فالأحلام تُقتل قبل أن تولد في الأوطان المدنسة. وأخبرهم أن الثورات نزيف دماء لا تجف، تزيد الظهور انكسارًا والقامة انحناءً، والقلوب طعنًا، والعيون حزنًا والحلوق مرارة. لا تُطهر دنسًا، ولا تنصب عدلا وإنما تُزيد الظلم ضراوة.

واعتزلهم وامضِ إلى مدينتك.. شيدها في عزلتك كيفما شئت.

سيقولون جبانًا، أخبرهم أن الجبن أفضل من الموت بلا ثمن، ولو أنه موتي بمفردي لفعلت، ولكنه حريق ينشب فيهلك كل ما يقف أمامه، نباتًا وجمادًا وبشرًا، ناره لا تنطفئ.

وأخبرهم أن لأرواحهم ثمنًا، وليُتم أبنائهم ثمنًا، ولنحيب أمهاتهم وزوجاتهم ثمنًا، وأن هذا الثمن باهظٌ جدًا، وبخس جدًا في هذا الزمن.

أما الثالثة فتعلّم بقدر ما تريد ولكن لا تحاول أن تنقل علمك لأحد، لا تحاول أن تنصح غيرك، لا تحاول أن تزرع نبتة في أرض مقفرة.

أما الرابعة فكن خبيثًا انتهازيًا، سر مع التيار لا مبدأ لك فأصحاب المبادئ يعذبون داخل حجرات قذرة كالجرذان داخل مصيدة.

لا تكترث لأي شأن فأولئك الذين يقاتلون من أجل تحرير الشعوب يُقتلون، وتلتصق دماؤهم بأرصفة الشوارع، تُدهس بالأقدام وتفوح بالعفن.

وحتى لا تصدق ما سيروه عليك من أكاذيب سأخبرك ما حدث:

في مساء ليلة ممطرة، اقتحموا بيتي، سحبوني من فوق فراشي، كانت أمك تغفو على صدري وأنا أحتضنك وأنت تتحرك بداخلها حركات وئيدة تهدهد قلبي. اغتصبوا أسعد لحظات حياتي وحرموني رؤيتك للأبد.

نهروا أمك و أسقطوها أرضًا، حاولتُ الدفاع عنك وعنها فأمسكوا بي وكبلوا يديّ خلف ظهري، كانت أمك على الأرض تبكي فزعة، أمطروها سبابًا، قلت كفى فسبّني أحدهم، فبصقت في وجهه فصفعني، ثم سحبني من رأسي إلى الخارج ونقلوني كالبهيمة لمكان لا أعلمه، كدت أبكي، كان الجرح بشفتي ينزف والأصفاد تؤلمني، ولكن ما كان أكثر إيلامًا جرح غائر بقلبي ينزف إلى الآن دون توقف، وآلامه لا تحتمل.

وضعوني في غرفة معصوب العينين، تركوني بمفردي لفترة لا أعلم قدرها، كدت فيها أصاب بالجنون والأفكار تتزاحم في رأسي تكاد تقتلني، وصوت لصنبور ماء لا تتوقف قطراته البطيئة عن السقوط في الصمت الرتيب،

أستجدي الصراخ والبكاء ولكن لا دموع، جف بداخلي كل شيء.

سكبوا المياه الباردة على رأسي، ابتل المكان وابتل جسدي وصرت أرتعش، ولكن لا يهم ما أنا فيه، المهم ألا تتحمل أمك عذابًا أكبر من وراء مثاليتي وأحلامي. فلتنعم هي بالدفء والأمان ولتنعم أنت بالحياة بعيدًا عن أب ساذج مثلي،

في الصباح كانت المحاكمة، عرفت أن تهمتي "حب الوطن"، قالوا: خائن.

قلت: حالم.

لم يصدقني أحد.. ليتهم قالوا مجنون، كنت سأقتنع وأرضى، فأنا مجنون وبنصف عقل مادمت مازلت أرى النور في نهاية النفق، وأتمسك بالأمل.

كانت أسرع محاكمة، قالوا خائن وللخيانة سجن مؤبد أو قتل، لم يرأف القاضي بي، أصدر أقسى عقوبة، سيضعونني تحت المقصلة، سأقف على منصة صخرية ويقف العامة بالأسفل ينظرون، ويصفقون ويهللون.. "الموت للخائن"، وعندما تسقط المقصلة فوق رقبتي سيُدهشون، وعندما تُقطع رأسي سيضحكون ويبكون، سيقول البعض: مسكين ترك ولده يتيمًا وباع نفسه للشيطان، ويقول البعض: نال ما يستحق جزاء ما كان، فيختلفون، ويتشاجرون، ثم ينصرفون واجمين، وينسون من قُتل ولِمَ قُتل، وتبقى أنت بعارك أن أبيك خائن وأنت لم تزل على ذراع أمك وليدًا، تتعثر قدماها في الطرقات باحثة عن الثريد، وأنت تلثم ثدييها فتجد الدموع ولا ترتوي فتبكي، ولا يرأف بك أحد، لا تنتظر الرحمة من أحد، تشبث بيد أمك، كن وليدها وسندها، لا تنتظر أن يدفع فاتورة فراقنا أحد، لا تنتظر عوضًا في هذه الأرض الظالمة.

فالقيصر لن يهتم سوى بعرشه، ذلك العرش الذي صنعت أقدامه من جماجم الحالمين أمثالي. فلا تحلم.. رجاءً لا تحلم.

أوراق ملونة

كانت تكتب أحلامها على أوراق ملونة، ثم تصعد أعلى البناية وتنثر حلمها في الهواء ليسافر عبر الرياح وهي ترقبه من بعيد لترى أين سيسقط، فإن لامس الأرض سريعًا قالت لن يتحقق، وإن تباطأ قليلا وظل يعلو ويهبط، يبتعد ويدنو شعرت بالأمل، وبتجدد أحلامها ويقينها من تحقيقها، هي ذات الأعوام السبعة، مجتهدة في دراستها بشدة لكنها فقدت القدرة على الحديث، آثرت الصمت أنيسًا والوحدة صديقة لها اعتراضًا على رحيل أمها، كانت على يقين من أنها ستعود، كانت تتألم حزنًا وحنينًا لأمها التي تعتقد في سفرها لمدن أخرى دون أن تودعها، كانت تحلم كل يوم بعودتها وعندما تصحو تكتب أحلامها، هي طفلة غير تقليدية بظروف غير طبيعية، الكتابة كانت لها المأوى والحضن الدافئ الحنون بعد أن عزفت عن الحديث لأي فرد حتى أفراد أسرتها ومدرسيها، إلا أمها التي تحدثها عبر الورق.. عندما تراها يُخيل إليك أنها تعيش بعيدًا عن أرضنا، ربما تسافر بروحها في عوالم أخرى.

الورقة الأولى:

"ماما وحشتيني"..

منذ أن سافرتِ والمنزل يتشح بالسواد وصوت نحيب أبي في المساء يفزعني، دادة "حسناء" تدمع عيناها كل يوم كلما حدثتني بشيء ولم تتلقَ منِّي ردًا فأنا غاضبة من الجميع لأنك رحلتِ، هي تحاول كل ليلة أن تغرقني حنانًا وتقبِّلني ولكني لا أشعر أبدًا بضمتها، فضمتك لها مذاق خاص.. ودفء خاص.. ومتعة لا تُقارن، كل يوم تعتقد أني قد غرقت في النوم

فتذهب لحجرتها وأصحو أنا لأكتب إليكِ، فتلك الرسائل تشعرني بالقرب منكِ رغم أني لا أرسلها لأي مكان ولا أعلم لك عنوانًا لأرسلها إليه إلا أنني على يقين من أنك تقرأينها، كل الأحلام التي رأيتك فيها عرفت فيها أنك قرأتِ كل الرسائل، ولكن لماذا لم تأتِ ثانية؟ أنا لم أفعل شيئًا يغضبك منّي أبدًا، كل يوم أراجع دروسي وأذاكر جيدًا، سامحيني.. لا أستطيع النوم مبكرًا، فرسائلي إليكِ تأخذ نصف الليل وها قد بدأ يتسلل إليّ صوت نحيب أبي، عودي كي يكف دمعه ودمعي، والآن سأخلد للنوم علّنا نلتقي.

الورقة الثانية:

أمي..

صرت أشعر براحة كبيرة وأنا أكتب إليكِ حتى وإن لم تصل إليكِ الرسائل، الآن صرت أعلم عنوانك، صباح الجمعة الماضية اصطحبني أبي لمكان موحش مقفر خالٍ من البشر، مليء بالبنايات الصغيرة مكتوب عليها أسماء أشخاص كثيرة مصاحبة لبعض الآيات القرآنية، أخبرني أبي أنكِ ترقدين هنا في هذا القبو المظلم، لم أصدقه حتى سال دمعه على وجنتيه وهو يتمتم بتلاوة بعض الآيات، شعرت بقشعريرة تسري في جسدي فقرأت الفاتحة والسور الصغيرة التي علمتني إياها حتى لمع وجهك شفافًا، نعم رأيت وجهك يبتسم فوق رؤوسنا وصار يعلو حتى وصل للسحاب فابتسمت ابتسامة واسعة وبعثت لكِ قبلة في الهواء، التفت أبي متعجبًا منّي ثم حملني وخرج مسرعًا.

أمي.. كيف أنتِ في هذا المكان الموحش بمفردك؟ ولماذا هذا المكان البعيد فلن أستطيع الوصول إليه بمفردي. أفتقد يدك الدافئة عند نومي لأتدثر بها، أفتقد قبلتك عند الصباح وتحضيرك لملابسي لأذهب للمدرسة وأنتِ تُلحين عليّ أن أسمع كلام أساتذتي، وألا أعود بمأكولاتي التي وضعتها لي كما

هي، وصاياكِ كلها أحفظها، أنصتي معي.. أبي يقرأ القرآن بصوت رائع، يذكرني وقتما كنا نتلو ونحفظ الآيات سويًا.

أمي.. أريد كراسة جديدة مجلدة بلون أخضر، لا أستطيع أن أطلب ذلك من أبي فأنا لن أحدثه أبدًا حتى تعودي.

اليوم نهرتني أستاذتي لأنني لم أجب عندما سألتني، ولما كتبت الإجابة في ورقة وناولتها إياها قبّلتني وبكت، لا أدري لماذا يتعجب أصدقائي من صمتي؟ يحاولون كثيرًا إضحاكي وجذبي للعب معهم ولكنني لا أستجيب، فلا شيء يمكن أن يغنيني عنكِ أبدًا.

تعبت كثيرًا اليوم سأغفو الآن ونستكمل الرسالة غدا.

(قبّلت الرسالة وكأنما الرسالة هي يد أمها فوضعتها بين يديها وتحت وجنتها وهي تستدفئ بها لتغط في نوم عميق).

الورقة الثالثة:

لم تُكتب، أصبحت الرسائل في عقل الطفلة دائمًا، فهي تتحدث لأمها في كل لحظة تمر في حياتها وهي على يقين من أن كل ما تقوله من رسائل شفاهية ستصل إليها حتمًا.

الساعة السادسة صباحًا.. تستيقظ من نومها مسرعة.. تُقبّل دميتها:

صباح الخير يا حبيبتي.

ثم تركض لتغسل وجهها وتتوضأ وتصلي ركعتي الصبح: أمي.. أنا صليت.

ذهبت لمكتبها الصغير تحضّر حقيبتها فوجدت الكراسة التي طلبتها من أمها ومجلدة باللون الأخضر، فرحت كثيرًا.. قبّلت كراستها وكأنها تُقبّل أمها: "متشكرة أوي يا ماما".

أبي عاد يقرأ القرآن بصوته وتلاوته الجميلة، حضّري لي ملابسي وأنا سأذهب لأسمعه قليلا من وراء الباب، أتلاحظين.. أبي كف عن النحيب

وأصبح يبتسم كثيرًا، بل ويحاول إضحاكي أيضًا، حاولت أن أستجيب له لكني لم أستطع، أعلم أن صمتي يسبب له حزنًا كبيرًا لكنني لن أتحدث أبدًا لأحد غيرك، ولن يعلموا أبدًا أنني أتحدث معك، سأسمع الصوت أفضل في حجرة الضيوف.

عندما فتحت باب الحجرة المغلقة منذ شهور وجدت أمها تجلس على الأريكة والقرآن بصوت والدها صار أكثر وضوحًا، وابتسامة أمها ترتسم على شفاهها فهتفت: أمي عدتِ أخيرًا.

ركضت نحوها فلم تجد شيئًا، صعدت على الأريكة واستلقت فسمعت همس أمها: حبيبتي.. انهضي سيفوتك ميعاد المدرسة.

بين النوم واليقظة، بين الحلم والحقيقة ارتمت بين أحضانها، حضن أمها الدافئ يعود أخيرًا، ترى ابتسامتها وتلمس الدفء والحنان في قبلاتها، لن أذهب للمدرسة.. سأجلس معكِ هذا اليوم.. لا تتركيني مرة أخرى.

الأم: حبيبتي.. أنا لم أتركك لحظة.. كل رسائلك وصلتني، وكل ليلة كنت أجلس إلى جوارك أرى ما تكتبين لي، وفي كل لحظة سأظل إلى جوارك، استمري في حديثك معي على الورق، ولكن لا تحرمي والدك من صوتك وكلامك. اليوم عيد ميلادك سيحضر لك بابا "تورتة" كبيرة وعليها اسمك ودمية جديدة لتنام إلى جوارك، وأنا سأقبّلك وأنت تطفئين الشمع، اليوم أتممتِ الثامنة.

النهاية:

الأب يبحث عن طفلته في كل مكان في المنزل، الساعة الآن الخامسة مساء، لا يدري أذهبت إلى لمدرسة أم لا؟ وأين اختفت؟ حجرتها خالية. فتح حجرة الضيوف ليجد ابنته نائمة على الأريكة تبتسم كالملائكة، تحتضن دميتها بشدة: حبيبتي.. لماذا نمتِ هنا؟!

هتفت: أبي.. أمي كانت هنا.

ابتسم لها في سعادة غامرة بأنها أخيرًا نطقت، حتى دمعت عيناه، أخفى مشاعره وهو يعود ليسألها: لماذا أنتِ هنا؟

- أمي كانت هنا.

- كنت تحلمين.

- بل حقيقة، تعال معي.. انظر هذه الكراسة أمي أحضرتها لي.

ابتسم الأب ثم ضمها إليه ثانية وقبلها وهو يخبرها: حبيبتي.. أنا من قرأت رسائلك واشتريتها لكِ.

هزت رأسها بعنف رافضة كلامه: لالالا.

الأب: حبيبتي ماما ذهبت إلى الجنة يمكنك فقط رؤيتها في الأحلام.

الطفلة بإصرار: لا بل حقيقة.

الأب: لا عليكِ الأهم أن ابتسامتك عادت وصوتك عاد يملأ عليّ حياتي، هيا لتبدلي ملابسك في انتظارك مفاجأة رائعة.

ارتدت الطفلة فستانًا أبيض أنيقًا وخرجت مع أبيها من حجرتها الصغيرة لتجد المنزل مزين بالورود والبالونات، وأطفال العائلة يستقبلونها بالغناء ويصفقون، وفي المنتصف مائدة صغيرة تحمل "تورتة" كبيرة مكتوب عليها اسمها، لمعت عيناها في سعادة عندما أطفأوا الأنوار ليضيئوا الشموع فلمحت وجه أمها بابتسامتها الحنونة، ازداد شعورها بالطمأنينة والسعادة وهي تسمع همسها.. "سنة حلوة يا جميل". أطفأت الشموع، أكلت وشربت ولعبت وضحكت بشدة، ثم لملمت كل الرسائل وصعدت لأعلى البناية وبعثتها للهواء جميعًا، ليس لهم الآن أي جدوى فهي لا تحتاج لكل هذا الوقت في الكتابة على كل هذه الأوراق لتسمعها أمها، فهي دومًا إلى جوارها، تشعر بها.. وتسمع حتى أنفاسها ودقات قلبها.

"وكنتُ أعرف في أعماقي أني لا أستحقكِ، ليس لأنني لا أستطيعُ أن أعطيكِ حبات عيني.. ولكن لأنني لن أستطيعَ الاحتفاظ بكِ إلى الأبد".

غسان كنفاني

الحائر

يحمل كل أحلامه داخل قلب مثقل بالحزن، حزنٌ دامٍ على من أحب.. ومن فقد.. ومن رحل.. ومن لن يعود أبدًا.

غريب في مدينة لا تعي لغته ولا تدرك أفكاره المبعثرة، هائم على وجهه لا يدري إلى أين يذهب وإلى أي قبلة يولي وجهه، يقف في شرفة منزله ينظر للعالم من حوله وكأنه يراه لأول مرة، يتذكر السنوات الخمسة عشر التي مضت، "شجن".. اسم حبيبته، كان يحبها بجنون منذ أن كانت طفلة يركض خلفها في فناء المدرسة معجبًا بعيونها وابتسامتها الرقيقة، حتى كبرت أمام عينيه وهو يسير خلفها يحرسها في كل مكان حتى أصبحت شابة رائعة الجمال، وكطفل بريء فكر أن كل الأحلام التي نتمناها ونحن صغار ستتحقق بكل سهولة في الكبر.

عندما فكر في التقدم لخطبتها كان قد توفى والده ليشعر لأول مرة بأقسى شعور بالوحدة والاغتراب، شعر وقتها أن الغطاء الذي كان يحميه من العواصف والأمطار سقط للأبد، ولا يمكن إصلاحه أو استرجاعه، شعر أن كل السنوات التي مضت بعد رحيل والده هي سنوات قضاها في العراء بلا مأوى ولا سكن. ثم بدأ حلمه القديم في خطبة حبيبته "شجن" يتهاوى،

تمت خطبة "شجن"، وحال قصر اليد وضعف الحال من أن تكون خطبتها إلى حبيبها، لكنها لم تنسه، خفق قلبها بعنف عندما علمت بسفره، كانت تعلم أنه يسافر هربًا من كل شيء، من مدينته وذكرياته، من إخوته الذين وقفوا دون تحقيق حلمه، وحتى أمه المتسلطة التي ترفض بشدة

زواجه من هذه الفتاة، وهرب من "شجن" نفسها، تلك التي عذبته كثيراً، مرات بحبها.. ومرات بترددها.. ومرات بغضبها منه وبعدها عنه، عندِها أفسد كل شيء، وعزة نفسها داء ليس منه دواء، وضعف الحال بلاء لا يمكن الفرار منه بسهولة.

سافر، كان يريد أن يهرب من وحدته وحزنه لكنه لم يكن يعلم أنه سافر داخلهما، فالحزن كل يوم يزداد والحياة موحشة يخيم عليها كل معاني الغربة والوحدة المؤلمة، والحيرة تزداد بين رغبة في العودة لمدينته الصغيرة وبيته و أصدقائه، وبين الخوف من مواجهة كل هؤلاء، فلم تعد القلوب كما.. كانت ولم تعد المدينة التي تركها صغيرة كما هي صغيرة.

كل ذكرياته مع حبيبته مرت في دقائق وهو يقف في شرفته يشرب قهوته، لمعت في رأسه فكرة "الانتحار"، السبيل الوحيد للراحة من كل هذا الشقاء، ارتشف رشفة أخرى من فنجانه ثم شعر بألم في صدره، لقد سئم كل شيء، مرضه وضعفه ووحدته، واشتاق الموت، ولكن الحياة تجبره على الاستمرار، أن يدور في ذات الدائرة كل يوم، بروحٍ سجينة.. وقلبٍ ميت.. وجسد يفعل كل شيء بروتينية مطلقة.

"ما لا يمكن غفرانه هو أن الأمهات بالذات هن اللواتي يعززن النظام ويمنحنه الديمومة بتربيتهن أبناء متعجرفين وبنات مستعبدات؛ ولو أنهن اتفقن فيما بينهن على عمل ذلك بطريقة أخرى لاستطعن القضاء على تسلط الذكور خلال جيل واحد".

إيزابيل الليندي

خارج سرب الفراشات

ثلاث محاولات للسعادة، ثلاث متتاليات للفشل، ثلاثة رجال يدخلون حياتها ويخرجون على فترات متباعدة، ثلاث خِطبات لا تتم للنهاية، يرحلون دون استئذان، هي دائمًا تتعلق وتنسج الأحلام الوردية، ويُسهب هو في الوعود لتتعلق أكثر بأحلامها، حتى تأتي تلك اللحظة التي يبدو فيها الممثل وقد مل دوره وأقنعته، تلك اللحظة الجدية الخطرة، التي يكون فيها التنازل حلا لا فرار منه.. ولكن مَن يتنازل؟

تكون هي دائمًا الطرف الضعيف المتنازل المضحي، فالأمر عادة في نظرها بسيط لا يحتاج لتحمل كل هذا العناء الذي قد يؤدي للانفصال فتتنازل هي لتستمر الحياة، بينما هو يظل أنانيًا متمسكا بموقفه للنهاية، الرجولة ألا يتراجع أبدًا.. ألا تسقط كلمته أرضًا.. ولو كان فيها تعسف وقسوة، لا أدري من علّمه هذه الرجولة الكاذبة؟ فالرجولة نبل وأمان ورعاية، الرجولة قوامة. ولكن تلك التنازلات منها لا تجبر الشروخ التي تصدعت بها العلاقة، لا تصلح تلك الانكسارات بداخلها، فتصبح واهنة، مثقلة بآلام شتى، حتى تأتي لحظة حاسمة، لا تستطيع فيها أن تتنازل أكثر فترفض وتقتنص حقها.. ولو لمرة واحدة، لتتساقط فورًا كل أقنعته وينزع ثوبه المسرحي ويخرج دون حتى أن ينحني لتحية مشاهديه، يخرج من الساحة تمامًا ويتركها وحيدة منكسرة، ليس بسبب الفشل والأحلام التي تهدمت فقط، ولكن لأنها حتى وهي داخل العلاقة كانت منكسرة لأنها قبلت على نفسها كل هذا القهر لتتجنب تلك النهاية، ورغم ذلك حدثت أيضًا فأصبح الألم مزدوجًا. ذلك لأنها كانت دائمًا تفكر بقلبها بينما هو

لم يدخل العلاقة إلا بصفقة عقلية مجردة تمامًا من المشاعر، هو يريد أن يأخذ دائمًا.. ويأمر فيطاع، هو لم يتزوج حبيبته، إذن لا شيء يجعله يتنازل، تلك المرأة تريد الزواج وهو كذلك، لا شيء بينهما سوى مشروع لبناء عائلة لابد أن تسير بقوانينه هو، ورؤيته هو، تلك هي العقدة التي ترسخت بداخل رجل فقد حبيبته فتساوت عنده النساء، لا شيء يجعله يبقى، ليست أغلى ممن رحلن عن حياته.

أما هي وقد توالت خيباتها فلا تستطيع أن تنهض من فراشها، تنتحب مساءً وهي تتساءل عن الذنب الذي اقترفته وتتذكر كل ما مر بها، لا تستطيع حتى أن تفتح نافذة غرفتها لترى الشمس، فهي تهرب من عيون كل مَن حولها، نظراتهم مقيتة كالخناجر مصوبة إلى صدرها، الجميع يلومونها حتى النساء، كلهن يتهمونها بأنها هي من أخطأت، وإن قالت: "قهرني". يقلن: "جميعنا مقهورات، لا أحد سعيد في هذه الحياة، الرجال جميعهم يشبهون بعضهم البعض.. الأنانية ذاتها والكذب والرعونة، تنازلي كي تسير الحياة".

هذه مبرراتهن لخيباتهن وحياتهن التعسة، لن يفهمنها أبدًا لأنها لن ترضى أن تصبح مثل هؤلاء النسوة اللاتي يتزوجن زيجات الأنعام، يلهثن وراء العمر الذي يمضي كتاريخ صلاحية المنتج، عمر للزواج.. وعمر للإنجاب لا يجب أن يمر.

تقف أمام المرآة.. تنظر إلى وجهها، تتأمل ملامحها المرهقة من السهد والحزن، هي الآن في الثلاثين من عمرها، وحيدة ضائعة مثقلة بحزن امرأة في الخمسين، تسربت منها سنوات عمرها هباءً في دور سخيف في مسرحية متكررة، شاحبة كوجه امرأة على مشارف الموت.

تذكر عندما كانت في السادسة والعشرين، كان يرعبها فكرة أن تصل إلى الثلاثين بلا رجل إلى جوارها، قبل أن تصبح زوجة وأمًا؛ لذا استسلمت

لإلحاح نساء العائلة وأولهن أمها عندما طرق بابها رجل فقالوا عنه "إنه لا غبار عليه"، ولا تدري كيف هذا والعالم من حولها منغمس في القذارة حتى إنها بالكاد تنقذ أطراف ثوبها.

لا تدري حقا ما ذنبها؟ ولماذا كل الاتهامات مصوبة لها هي فقط؟ بينما كل واحد من هؤلاء الرجال ذهب ليكمل حياته ويبني أسرة مع امرأة أخرى، هل ذنبها أنها لم تقبل القهر لمرات متعددة؟ أم لأنها قبلت به أول مرة؟ وماذا عن كل هؤلاء النسوة اللاتي يحدثنها عن تقصيرها وأن الحياة لا تستمر سوى بالتنازلات؟ ولماذا تكون المرأة هي الطرف المتنازل دائمًا؟ هل يقبلن جميعهن التنازل هكذا؟

بل ذنبها الذي اقترفت أنها فراشة متمردة، تحلق دائمًا خارج السرب وقبلت بقوانينه في النهاية، هي من خضعت لقوانين لا تليق بها، فهي ليست من هذا القطيع.

المحتويات

إهداء 5
عازفة الكمان 7
رسائل الياسمين 29
بريد إلكتروني 33
رقصة فالس أخيرة 41
لندن 55
آلام الصمت 65
شجرة الياسمين 69
خطاب سبارتاكوس ربما ليس الأخير 73
أوراق ملونة 77
الحائر 83
خارج سرب الفراشات 87

للتواصل مع الكاتبة

فيسبوك:

https://www.facebook.com/rasha.nouman.7

https://www.facebook.com/rasaelelagharib

تويتر:

https://twitter.com/Elameera28

Email:

Ladydi2810@gmail.com